

الجزء الثاني

رأينا فيما سبق من فصول هذا الكتاب كيف بدأ روسو حياته في الأدب بوضع خطاب العلوم والفنون وخطاب التفاوت وكتاب المناظر . ثم رأينا كيف انقطع للأدب وللتأليف حتى ظهرت كتبه الكبرى : جولى والتربية والعقد الاجتماعي . ورأينا أخيراً كيف قضى باعتقاله وكيف فر من باريس وكيف طُرد في مختلف الممالك بسبب هذه الكتب التي أصبحت من بعد ذلك تاج مجده وموضع فخر فرنسا . فليس من بد أن نقف الآن ترجمته لنعرض على القارئ صور هذه الكتب الكبرى واحداً بعد الآخر حتى يرى مواضع عظمة هذا النابغة الشقي .

أول هذه الكتب جولى أوهلويز الجديدة . وجولى هي رواية روسو الفذة التي هزت أدب فرنسا وأدب أوروبا مدى القرن التاسع عشر ، والتي لا تزال إلى الآن علماً في أدب العالم جم الأثر . وهي كتاب ضخيم تربو صحائفه على الألف ، جمع روسو بين دفتيه العواطف الهائجة والمشاعر المضطربة والأفكار الثائرة والميول الفلسفية والأبيقورية الزاهدة والزرعة لتحكيم الشعور في العقل ووضع ذلك كله بأسلوب موسيقى بديع . فلعلنا نوفق إلى استيعاب ما حوته على نحو تتجلى معه صورة الرواية وما أحدثت من ثورة وانقلاب .

كان أول ما فكر روسو في كتابة الخطابات التي يتكون منها القسم الأول من الهلويز في ربيع سنة ١٧٥٦ ، بعد نشر خطابه عن عدم المساواة ، وبعد عودته من جنيف ومن نزحاته حول بحيرة ليمان ، وبعد مقامه في الصومعة التي أقامتها له مدام دبناي . وكانت قدمه قد استقرت يومئذ في الأدب لما صادف خطابه من نجاح وما نالته روايته (ملاك القرية) من إعجاب . لكنه كان قد بدأ يشعر بحسد الحاسدين ويفسره بحب غيره الواقعة به . فلما قبل خطابه عن عدم المساواة في جنيف بالإعراض انكمش واستسلم ليله الطبيعي للوحدة وانقطع في صومعته مسروراً بمناجاة نفسه . وفيما هو في وحدته ذكر جمال سويسرا الساحر الذي غاب عن ناظره مدة مقامه في باريس والذي ملك عليه له واحتل كل قلبه وهاجت فيه

العواطف التي لم تخمد يوماً من الأيام حتى عاد إليه يمتع الطرف به مدى الأشهر الأربعة التي قضاها في جنيف . وزاد الربيع في هذه العواطف بما جمع أمام مخيلته من ذكرى الطبيعة البديعة ومن معاني الهوى والهيام . « ودفعه تذكره لمختلف أيام حياته أن يفكر في الحال التي وصل إليها فرأى نفسه في منحدر العمر فريسة آلام قاتلة . وخيل إليه أنه يقترب من ختام أيامه ولم يذق ذوقاً كاملاً أياً من الملذات التي يريدها قلبه » فاستعداد في ذاكرته صدى من عرف من السيدات والأوانس . ووقف منهن عند صورة مدموازيل جالى وصاحبها جرافريد ، وجعل من الأولى ملاك هواه . . . ثم جمع في خياله بين مناظر سويسرا والربيع المحيط به ومثال هذه الآتسة البديعة التكوين التي أسماها جولى وأسلس لعاطفته الملتها العنان ، وجعل يتخاطب في نجواه مع هذا المثال ويسطر على الورق الخطابات القوية الرقيقة التي تكون الجزأين الأولين من أجزاء الرواية .

وقد زادت علاقات روسو بمدام دودتو هذه الخطابات قوة ورقة وتركت فيها من الأثر ما سبقت بنا الإشارة إليه في الفصل السادس من هذا الكتاب .

والرواية مجموعة ضخمة من خطابات متبادلة بين عاشقين هما جولى وسان برى وبينهما وبين المتصلين بهما بسبب هذا الحب . ولذلك ظهرت الطبعة الأولى منها في سنة ١٧٦٠ تحت عنوان (خطابات عاشقين يقطنان مدينة صغيرة في سفح جبال الألب جمعها ونشرها جان جاك روسو) ولم تسم بالاسم المعروفة اليوم به وهو جولى أوهلوز الجديدة إلا بعد ما انتشرت ونالت من الإعجاب ما جعل بطلتها علماً على الغرام تدعى به كل عاشقة وكأنها ليلي المجنون أو جوليت روميو أو هلوز دابيلار . وهذه الأخيرة هي علم الغرام في فرنسا من قديم الزمان . فكان طبيعياً أن يطلق على علم الغرام الجديد اسم هلوز الجديدة .

وحديث هلوز دابيلار بطلة أشهر الأقاصيص الغرامية شهى طويل . خلاصته أنها ولدت في باريس سنة ١١٠١ ثمرة لغرام غير مشروع فاحتضنها خالها القس فلبير Fulbert وعلمها اللاتينية واليونانية والشعر . ثم عهد بها إلى صديقه القس أبيلار صاحب الصيت الذائع لبلاغته وطلاقة لسانه وعذب حديثه وجميل قوامه وما إلى ذلك من صفات جعلته يزهى بأنه لا يخشى أن ترفض امرأة شرف محبه . وكانت هلوز تلقى عليه الفلاسفة . وسرعان ما اتصل بينهما

غرام اشتد في نفس الفتاة لم يشغلها عنه ما كان يتطلع إليه رفيقها من المجد . فلما حملت منه ذهب بها إلى بريتانيا وعاد فعرض على فلبير أن يتصل وإياها بزواج سرى على نحو ما كان متعارفاً في ذلك العصر بين القسس غير المسموح لهم شرعاً بالزواج . وقد طرب فلبير لهذا الحل وبلغ منه السرور به . ولكن هلويز قاومت ورفضت خشية الإضرار بما يضمرة المستقبل محبوبها من مجد وعظمة وقالت : « أليس من الخطيئة أن تختص امرأة لنفسها رجلاً خلقتة الطبيعة ليكون للناس جميعاً ، وهل من ذهن متجه إلى التأملات الفلسفية وإلى المسائل المقدسة يستطيع احتمال صياح الأطفال وثرثرة المراضع وضجة الخدم » ثم التجأت إلى دير أرجنتيل Argentueil من غير أن تنقطع المكاتبة بينها وبين أبيلار ومن غير أن يقطعاً عن التقابل وتبادل صلات الغرام ، فنشر فلبير أنهما ارتبطا بزواج سرى وأمعن في نشر الإشاعة آملاً أن يدفعهما إلى هذه الغاية . لكن هلويز أقسمت أنه كاذب . فدرس فلبير على أبيلار قوماً خصوه واضطروهم بذلك للاختفاء في دير سان دنيس حتى يدارى شينه . على أنه مع ذلك طلب أن تعلن هلويز دوام تعلقها به . فظن قوم أن هذا الشك من جانبه بعد ما وصل إليه من سوء الحال قد يغيرها عليه ، لكنها لم تردد إلا إمعاناً في حبه وفي التعلق به وصاحت قائلة : تعلق أنا وأنا التي أسبقه إلى النار أو ألحقه إليها إذ هو ألقى بنفسه في لهبها . وأعلنت في الكنيسة دوام تعلقها به ، ثم تبودلت بين العاشقين فيما تلى ذلك من السنين مخاطبات وجد وهيام تبادلاها بعد ما احتمى كل منهما في حمى الله ووهبه نفسه . وظلا على عهدهما حتى مات أبيلار في سنة ١١٤٢ . وبقيت هي بعده اثنين وعشرين سنة كانت فيها مثال الطهارة فنالت من إكرام القديسين والبابوات ما بلغ حد الاعتراف بقداستها .

وقد كانت خطابات هلويز وأبيلار مكتوبة باللاتينية . ثم ترجمت إلى الفرنسية فخلدت ذكرهما وجعلت قبرهما القوائم الآن في مقبرة بير لاشيز مزاراً للعشاق والمغرمين .

ولما كانت رواية روسو مجموعة خطابات بين عاشقين وكانت من الإبداع بحيث تستحق من الخلود مثلما استحققت خطابات هلويز وأبيلار فقد أطلق عليها اسم هلويز الجديدة . وليس ذلك عليها بكثير بعد ما نالت أول ظهورها

من نجاح بهر أكابر الكتاب ، وبعد ما امتلكت لب شبيهة ذلك العصر وفلاسفته وسيداته ، وبعد ما بلغ من الإقبال عليها (أن لم يستطع باعة الكتب إجابة كل الطلبات وأن كان الكتاب يعطى بأجر معين بلغ عن ساعة واحدة في أول أيام ظهوره اثني عشر صليداً) . ولسنا نشك في صحة هذه الرواية التي نقلها الأب بريزار Brizard مع ما نحس به في أكثر خطابات الرواية من عذوبة ومن رقة ومن رنة موسيقية ، ومع ما نعلم من أثرها الذي تركته فيما بعد سواء بأسلوبها الخطابي المرتعش أو بعبراتها الدائمة الهملان أو بما يتجلى فيها من شعور قوى ومن تحليل نفساني وخلقي واعتقادي دقيق ، وإذا كان فيها من مواضع الضعف أن مواقف الأشخاص الذين فيها مواقف غير عادية بل غير معقولة أحياناً فإن خصب الخيال الذي امتاز به روسو والمواقف البديعة التي لا مثال لها ووصف الطبيعة وصفاً دقيقاً لا يصدر إلا من روسو عاشق الطبيعة عشق الهيام وما إلى جانب ذلك من ملاحظات فلسفية دقيقة ، كل هذا ستر أغلاط الروائي في ما لفقه من مواقف أشخاصه .

على أن هذه المواقف الملفقة التي سنعرضها على القارئ لم تكن باللغة هذا المبلغ من التلفيق والغرابة في نظر روسو ، لأنها ليست إلا صوراً مختلفة من مواقف حياته . وحياته بدعة لذاتها وبدعة من أولها إلى آخرها . فهذا المتشرد البائس العائش عيش البداوة الملوث النفس من صغره والذي يعالج الفضيلة بعد الأربعين مخلصاً وجهه لها موجهاً كل نيته نحوها فتحونه أعماله ومشاعره الوقت بعد الوقت ، وهذا العاشق الطبيعة المحب للوحدة غير الموفق في الحياة الخاضع لتصاريفها الجامع بين الاطمئنان لها والثورة عليها . وهذا الوضع الأصل والمنبت الذي قضى قسماً من حياته خادماً ثم مربياً ثم موسيقياً ثم اتصل بالعظماء والأشراف فغطهم على شرفهم وعظمتهم وظل طول حياته يتمسح بهم ويتلصقاً حولهم مع مداومة التجنى على ألقابهم وعلى مراكزهم . وهذا البروتستانتي المنقلب إلى الكاثوليكية المرتد إلى البروتستانتية القوى الإيمان بين أهل الإلحاد والنفي . وهذا الإنسان المريض الإحساس المولع بالنساء الشاب القلب الهائم بمعنى الحب أكثر من هيامه بصورة خاصة منه . هذا المخلوق الغريب الجامع لكل هذه الصور والمولع بنفسه إلى حد أنه لم يعرف سواها طول حياته لا يمكنه وهو يكتب روايته إلا أن يجمع فيها بين

أغرب المواقف وأدعاها للدهشة .

ولا عجب في ذلك والهلويز ليست إلا صورة من صور حياة روسو في الواقع ومن حياته أيضاً في الأمل والحلم . لكن روسو لم يكن قديراً أن يجمع في شخص واحد من أشخاص روايته ما اجتمع في نفسه وخلقه وعقله من متناقضات فوزعها بينها جميعاً . كما نشر كثيراً من آرائه في الحب وفي الفضيلة والتربية والزواج وحياة الأسرة وغير ذلك على صفحات خطاباتهم المختلفة .



ولكى نحلل رواية تزيد صفحاتها على الألف يحمل بنا أن نسير مع المؤلف رويداً رويداً حتى لا تضطرب أمام ذهن القارئ صورة من بدائع ما أنبت أدب القرن الثامن عشر .

أكثر أشخاص رواية روسو خطراً اثنان : سان برى وجولي Saint Preuxet Julie . وسان برى شاب من سواد الشعب أوى حظاً من الذكاء والعلم وأوى حظاً من العواطف والمشاعر أكبر وأعظم . وهو شديد الولع بالطبيعة وبمناظرها شديد الرغبة عن المدن ومخاطرها قليل الاعتبار للألقاب الموروثة ميال للفضيلة نزاع بطبعه إلى الخير . فهو لذلك صورة من روسو على ما يحب روسو أن يكون . وهو لذلك أكثر ترفعاً عن مؤاناة النقائص التي تلوث بها نفس روسو من أيام كان خادماً وإبان كان مشرداً طريداً . وقد دعت البارونة دتـانـج d'Etange لهيذب ابنتها جولي . وكانت يومئذ في الثامنة عشرة من عمرها وعلى جانب غير قليل من الجمال والرزانة ، لكن رقتها وضعفها كانا أرجح من رزانتها ومن جمالها . فلما اتصل ما بينها وبين سان برى أسرع الحب إلى نفسيهما . فكتماه زمناً واستمرا في دراستهما ، ولم يكن في مقدور الأستاذ الذي خلقه روسو على صورته أن يفتح تلميذته نحوى الحب لا مفاجأة ولا بتحضير دقيق ينتهى بملكها . ولم تكن هي كما كانت مدام دلارناج التي جرت روسو جراً إليها . لذلك حرر سان برى خطابين طويلين بث فيهما لمحبوبته لاجع شوقه ومحرق غرامه . وفعل الخطابان في نفس الفتاة لكنها لم تحبه عنهما بشيء فأرسل إليها بثالث ذكر لها فيه حبهما المتبادل على غير جدوى وأشار في ختامه إلى ضرورة ابتعاده عنها حتى تبقى في سكوتها وطمأنيتها ، فأجابته مستبقية إياه قائلة له « إن القلب الفاضل يعرف كيف يتغلب

على هواه أو أن يكتمه . فلما ألح في ضرورة الارتحال آسأته أن رجلاً يدعى ما ادعاه هو من الجمع بين الفضيلة والحب لا يكتفى بالارتحال بل يقوم بعمل أكبر من ذلك وأحدر . لكنها ما لبثت أن علمت منه تصميمه على إطاعة أمرها بإراحة نفسه من عناء الوجود حتى استصرخته ألا يفعل وأفضت له بكل ما يحويه قلبها من حب وضعف . وتبدلت بينهما بعد ذلك خطابات عدة جامعة إلى جانب كل معاني العشق والوجد والجوى والهوى العذرى بعض أفكار في التعليم وفي التاريخ وفي قواعد الخلق . ثم انتشر الحب من قلبهما إلى مجموع وجودهما وشعرا بأن هذه المكاتبات الطويلة العقيمة لا تغني وحدها من الحب شيئاً . فتواعدا على التلاقى جوف الليل في كوسج تحيطه الأشجار . وشرطت جوى أن تكون معها في هذا الملتقى بنت عمها كليز كى تحارب بها انفجارات الحب من جانبها ومن جانب محبها . وتلاقيا ومعهما كليز ثم كتب سان برى لها يصف هذه اللقيا قال :

« ولما دخلت الكوسج اقتربت ابنة عمك منى وطلبت إلى بنوع من الرجاء الظريف أن أقبلها . فقبلت تلك الصديقة الساحرة وإن لم أفهم سر طلبها ! وبرغم ما هى عليه من الرقة والظرف فإني أدركت في تلك الساعة أن الإحساس ليس إلا ما يريد القلب أن يكون . لكن ماذا عراني بعد لحظة من ذلك حينما شعرت . . أن يدي تضطرب . . برعشة رقيقة . . بفمك الدرى . . فم جوى . . يلتقى بفمى وينضغط عليه . وبجسمى بين ذراعيك ! كلا ليست نار السماء أقوى ولا أسرع من تلك النار التى أحرقتنى . فقد اجتمعت كل أجزاء وجودى لترشف هذا الملمس العذب ، وتطايير اللهب مع تنهداتنا من شفافنا المحترقة وحمد قلبي تحت حمل اللذة . . ثم رأيتك فجأة وقد ذهب لونك وأقفلت عيناك الجميلتان واستندت إلى ابنة عمك ثم سقطت مهدودة ذاهلة أن أطفأ الوجل المسرة . فكان هنائي بذلك برقاً سريع السنأ . »

لكن هذه القبلية الحارة المحرقة هزت وجود الفتاة هزاً عنيفاً وأرتها رأى العين مبلغ ضعفها ومبلغ اندفاعها نحو الخطر . فكتبت إلى صديقها تأمره بالابتعاد عنها وبالسفر ، وأرسلت له مبلغاً من المال فردده ، فغضبت لتلك السخافة وضاعفت المبلغ وهددته إن هو رفضه . . فقبله وبارح الديار من غير أن يراها . واستمرت

المكاثبات بينهما ما بين حب ومعاوضة وعتاب حتى إذا حضر البارون ديتانج ورأى ما أفادته فتاته من العلم والحكمة سأل عن معلمها . فلما ذكر أنه رآه من قبل ، وأن في نفسه منه أثرا غير سيئ . سأل عن ثروته فقيل له إنها نافية . وعن مولده فقيل له إنه طيب . فوقعت هذه الكلمة موقعا غريبا من نفس هذا الشريف المولد حتى اضطر أن يسأل عما يدفع إليه من أجر . وقد ساء جد المساءة أن علم أنه لم يقبل أجرا . واعتبر في تفضل رجل من العامة على شريف مثله مسبة . وأمر أن يعرض على المعلم أجر معين إن رفضه شكر عما قدم .

أما سان برى فكان يقطع وقته في اعتلاء الجبال وجوب الوديان والاستمتاع بكل بدائع الطبيعة . ويصف ذلك في خطاباته إلى جويل ويتغنى بحمالة على نغم موسيقى عذب رنان كانت توقعه ريثة روسو على القرطاس فتستخرج منه معاني وأصواتا وصورا ليست أقل إبداعا من صور روفائيل ولا من أنغام بيتهوفن ولا من أغنيات عذاري البحار . فلما وصلته كلمة جويل تحبزه بما كان من والدها ومن تحميمه دفع الأجر إلى معلمها رد عليها يقول :

« إنني أميز فيما يسمونه الشرف بين ما يستفاد من الرأي العام وما يرجع إلى احترام الإنسان نفسه . فأما الأول فجماع خرافات سخيفة أكثر تقلبا من الموج المضطرب ، وأما الثاني فقائم على أساس من حقائق قواعد الخلق الثابتة . وإذا صح أن يفيد تشريف الناس لنا فهو لن يصل إلى الروح ولن يكون له أى أثر على سعادتنا الحققة . وعلى العكس من ذلك أمر الشرف الصحيح الذى هو روح السعادة . فليس يحد الإنسان عاطفة الرضا الداخلى الدائم التى تمناز دون سواها يجعل المخلوق المفكر سعيدا إلا في نفسه . فلنطبق هذه المبادئ على مسألتك يا جويل لتحل عقدتها .

« لقد تظهر تلك المهنة . مهنة إقامتى نفسى أستاذ فلسفة ، واقتضائى النقد مقابل تعليم الحكمة دنيئة في نظر الناس . وقد أقر أن فيها شيئا من السخف لذاتها . على أنه ليس من بين الناس من يستطيع إقامة أوده بنفسه ، ولا سبيل إلى ذلك أقرب له من الاستفادة من عمله . لذا وجب ، أن نضع هذا الازدراء في صف أشد الخرافات خطرا وألا نكون من السخف بحيث نضحى هناءا بسبب مثل هذا الرأي الأخرق . »

لكنه رأى أن الشرف الصحيح يمنع عليه اقتضاء التقد من الأب واستغلال قلب البنت التي تحبه ويحبها . فذكر ذلك صريحاً في كتابه وأشار إلى أن توافق قلبيهما وتقارب سنيهما واندفاع كل منهما نحو صاحبه وخسة كل علاقة بينهما غير مشروعة تجعله أميل للنظر في وسيلة أخرى لاجتماعهما . وليست هذه الوسيلة إلا الزواج .

غير أن البارون ديتانج كان من أشد الناس تشبثاً بمبدأ الكفاءة في الزواج ، فلن يزوج ابنته من أفاق كسان برى . هو مهما بلغ من علم وحذق وفضيلة لن يعدو أن يكون من عامة الناس ومن سواد الشعب . وهو فوق هذا فقير معدم . وقد أدخل هذا الرأي إلى قلب جول من الهم ما أمرضها حتى استدعت صاحبها لئلا تخشى أن يحل أجلها وهو عنها بعيد .

وقد أعانت كلير Claire d'Orbe صديقتهما واستدعت سان برى وألحت في استعجاله . ثم بلغها أن مربيتهما في خطر الموت فتركت قتي Vevey وسافرت . وبعد زمن من سفرها جاء سان برى وتقابل خفية مع جول وحرضها على الفرار وإياه من البيت الأبوي . فرفضت مخافة ما يصيب ذلك أبويها من سوء وعار ، لكنها خشيت أن تبث هذا الرفض صدر محب وامق ، فاستسلمت له وارتعت في أحضانه وزاد به وبها الوجد في بعض سويغات سكرة الحب ففقدت عفتها .

* * *

كثير من الروايات والقصص التي كتبت بعد الملويز والتي أخذت عنها غرام المعلم بتلميذته الشريفة تنتهي بعد هذا الحادث بحادث حاسم كالانتحار أو القتل أو ما إليهما . وبعضها يترك للحب عنانه ويدفع بالفتاة التي سقطت في سبيل الغواية فتهجر بيت أهلها بل المدينة التي هم فيها لتوارى عارها ولتمتع كل شهواتها وملأها غير حاسبة للنتائج حساباً . ولقد كان ذلك في مقدور روسو لو أنه أراد . لكنه رأى أن تركه سان برى وهو صورة نفسه في هذه الحال يستنزل عليه سخط الساخطين ولعنات اللاعنين . ومهما كان من حق كل ساخط أن يعلن الغواية فقد كان ذلك عزيزاً على روسو فلم يطلق احتماله .

لهذا ظل سان برى زمناً يقابل ويكاتب جول بعد ضياع طهرها وعفافها حتى حملت منه وحتى اضطرت لإجهاض نفسها ، وفي هذه الحال المزرية

وفى هذا المركز المخجل تظل الفتاة الشريفة فى تجارتها الدنيئة مع معلمها من غير خجل ولا استحياء . ولو أن العاشقين شعرا بما فى ذلك من مخالفة للمبادئ التى نادى بها سان برى من قبل والتى اعتبرها أساسا للفضيلة الصحيحة وللشرف الحق ، وسترا عارهما وفسادهما لكان الأمر . ولو أنهما بدلا مبادئهما وذهبا إلى أن الزواج نظام لا محل له وأظهرا من الاقتناع بذلك ما يعذرهما عن مؤاتاة الرذيلة التى أقر من قبل أنها الرذيلة لصح أن يكون لهما فى ذلك بعض العذر . لكن خطباتهما الطويلة ظلت مملوءة باسم الطهر والفضيلة والسعادة القائمة على الحكمة الصحيحة ، وظلت مملوءة بها على طريقة روسو الخطائية التى تعدت فى جولى حدود كل ما رأى القارئ فى كتبه السابقة وكل ما سیرى فى كتبه اللاحقة . ولم تكن جولى ولا تزال فتاة لم تتعد بعد مبتدأ الشباب لتخجل فى كتبها من ذكر أعمالها بوقاحة متبجحجة لا يمكن أن يتصورها الإنسان تحت ريشة غير ريشة روسو وفى قرن غير القرن الثامن عشر ، ذلك القرن الذى اضطربت فيه كل العواطف وأصبح حظها من الألفاظ يعادل مكانها من النفوس أضغافاً مضاعفة .

فليس من شك فى أن الحب الذى كان معروفاً قبل ذلك العصر كان حباً يملأ القلب وقلماً يفيض على اللسان . وكان مظهراً من مظاهر ضعف النفس الإنسانية يحمل بها ستره . وكانت العذراء التى تحب ترى عفافها فوق حياءها كما كانت المرأة المتزوجة تضع واجب الزوجية فوق عواطفها الشخصية . لكن القرن الثامن عشر ظهر بمظهر فى الحب جديد . فكان حبه كثير الكلام أشد تعقلاً باللسان منه بالقلب ، وكان يعتبر وسيلة للذة لا غاية سامية لذاتها . على أن ثرثرته لم تبلغ فى العصر كله ما بلغته ثرثرة عاشق روسو . فما تحسب عبارة من عبارات الحب ولا لفظاً من ألفاظه ولا صورة له ولا حساً به ، ولا توهماً إياه ، ولا خيالاً منه إلا وصفه روسو فى خطابات روايته بإسهاب واستيعاب . ولعل ما رأى القارئ فيما مر من صور الحب ومن أزواج كانوا أكبر أصدقاء عشاق زوجاتهم ومن الزوجات المغرمت برفيقات أزواجهن يكتفى ليعطيه بعضاً من الصور التى مرت بوهم مؤلف الهلوايز فى أثناء كتابته إياها .

إنما كان إسهاب روسو غالب الأمر إبداعاً لا إبداع بعده . كم صورة من صورته تهز القلب وتستهوى النفس . اسمعه مثلاً فى خطاب من سان برى

إلى جولى وهما فى حال المخاللة وهو يقول لها : ! إيه يا مأكرة ! أكذاك تكون الحيطسة التى وعدتني باتخاذها . وهل يكون كذاك رفقتك نى وإخفاؤك ملامح جمالك ؟ ألا كم تخلفين عهدك ؟ وأول ما كان من ذلك زيتك . فإنك لم تترينى قط وأنت تعلمين أنك أشد ما تكونين فى هذه الحال خطراً ثم مظهرك الرقيق المتواضع الكفيل باستظهار كل ما فىك من معانى الجمال . وكلامك القليل الموزون الآخذ بنصيب من الظرف أكثر من عادته حتى زادنا التفاتاً وجعل الآذان والقلب يطيران يستبقان كل كلمة . وتلك الأغنية التى كنت توقعتها بصوت منخفض يزيد غناك رقة حتى يصل وهو غناء فرنسى لبنال إعجاب ميلورد ادوار My Lord Eduard . ونظرتك المخجولة وعيونك الناعسة الطرف يبعثن أحياناً من خاطف البرق ما يثير عندى قلقاً لا سبيل إلى دفعه . وبالجملية ذلك الروح الساحر الذى لا تعبر الألفاظ عنه والذى نشرته حولك فخلبت به الأنباب من غير أن تبدى أى عناية به أو تفكير فيه . ولست أدرى أى شىء تصنعين لتكونى كذاك . ولكن إذا كانت تلك هى سبيلك لتكونى أقل ما تكونين جمالاً فإنى نذيرك بأن ما عندك من ذلك يزيد عما يحفظ على المحيطين بك من الحكماء حكمتهم .

وميلورد إدوارد إنجليزى شريف عريض الحاه والمال . وقد عرف سان برى ثم اتصل ببيت ديتانج ووقف على ما بين سان برى وجولى من عاطفة . وعطف عطف العطف كله . لذلك جعله روسو واسطة الخير لهما فى كل ظروف الرواية . وبعد ما أراضى خياله بأن ممكن لبطله من (الوجود فى قصر نحتة فيه عناية السيد والسيدة وتصبح البنية فيه رفيقته والابن صديقه والمجاورون فى حمايته) مما لم يتح له هو فى حياته . وبعد ما جعل من ضعف جولى ضعفاً يزيد على المعقول وسيلة لإمتاع شهوات بطل روايته (بدوق الملذات التى يريد لها قلبه) . ففكر فيما يكون من شأن العاشقين وانتهى بأن جعل ميلورد إدوارد وسيطاً لهما عند البارون ديتانج لعقد زواجهما . وقبل ميلورد ما طلب منه وخاطب البارون فى الأمر وشرح له فضائل سان برى وانتهى بقوله : فإن أنت فضلت العقل على الوهم وكنت أكثر حباً لابنتك منك لألقابك فإنك لابد معطيها إياه .

هنا احتدم غيظ الأب الذى اعتبر الطلب سخيفاً غير معقول وصاح :

أُريد ذلك بخاطر رجل شريف مثلك يا ميلورد . أتقبل لشريف من أسرة عريقة وإن قل خطره أن يطق اسمه إذ يتزل به فيخلطه باسم أفاق لا مأوى له ولا عمدة في عيشه إلا على المصادفة . وهنا يمتنع روسو نفسه على لسان ميلورد بإعلاء شأن الأفاقين الذين كانوا أصل الشرف والتبيل والفضل وبالطعن على العائلات التي تسمى شريفة . أجل . « فماذا صنعت لمجد وطنها أو لسعادة بني الإنسان ؟ وماذا أنتجت في أكثر البلاد التي سطع نجمها فيها إلا أن ظهرت عدوة للقوانين وللحرية وإلا أن أعانت الاستبداد وظلم الشعوب ؟ فكيف بك تكبر أمر نظام قاتل للفضائل وللإنسانية . ثم يفخر أهله بقيام العبودية ويستجيبون أن يكونوا رجالاً ؟ اذكر تاريخ قومك ثم خبرني هل للأشراف زملاءك من فضل فيه ؟ فأيهم حرر وكم ؟ وهل كان فرست وتل وستوفا شر من طائفة الأشراف ؟ فما هو إذن ذلك المجد الأخرق الذي تملأون الجو باسمه صياحاً ؟ أهو في خدمة رجل وفي العيش على نفقة الحكومة » .

على أن هذه الحجج ومثلها وكل ما في خطاب التفاوت وخطاب المناظر من الصنع على نظام الأشراف ومن إعلاء شأن الإنسانية لذاتها ومن اعتبار الخلق والفضيلة والعقل والحكمة أساس كل نبيل وشرف لم ترزعزع شيئاً من عقيدة البارون الذي نشأ في أفكار طائفته العتيقة الخاطئة . بل لقد اعتبر وساطة ميلورد إهانة له وذهب لتوه إلى ابنته وإلى أمها فكبلهما بالمهانة وبالازدراء . ثم أبدى إلى الفتاة أنه لن يزوجها إلا من صديقه الشريف فولمار ولو اجتمعت لدى سان بيري خزانة إنجلترا . ومنعها من مقابلة عاشقها ومن مخاطبته ما عاشت .

بعد ذلك توسطت كثير في الأمر وأعانها خطيبها المسيو دورب وأمكن لها أن تقنع سان بيري بضرورة مغادرة الديار فعادها هو وميلورد إدوارد قاصدين باريس .



إلى هنا ينتهي الجزء الأول من الرواية . وقد افتتح روسو الجزء الثاني بهذه الملاحظة (لا أظن نفسي في حاجة لأن ألفت النظر إلى أن العاشقين وقد افترقا في هذا الجزء الثاني والجزء الذي يليه كانا يخلطان ويخبطان أن ضل صوابهما) . وهذا عنى ميلورد إدوارد في أثناء السباحة بالترويح عن نفس سان بيري ما استطاع .

لكنه رأى أن عنايته ليست كافية كل الكفاية ، كما أن رفض البارون وساطته ترك أثراً غير حسن في نفسه . فكتب إلى جولى يقول لها : « لى فى دوقية يورك مزرعة واسعة الأرجاء كانت مقام آبائى زمناً طويلاً . والقصر الذى هناك ممتع طيب وإن يك قديماً ، والضواحي على وحدتها بهجة تجمع مختلف المناظر . ونهر الأور الذى يجرى عند منتهى الحديقة يقدم للعين منظراً بديعاً ولمنتوجات الزراعة مصرفاً سهلاً . وجنى الأرض كاف لإقامة أود أسناذك ويمكن أن يتضاعف بعنايته . وليس إلى الخرافات على هذه البلاد الطيبة من سبيل . بل يحتفظ أهلها بالعوائد البسيطة التى ورثوها من العُصر الأولى . فهذه المزرعة لك يا جولى إذا نزلت إلى الإقامة فيها معه . . . ولقد كان معقولاً أن تسمع جولى لميلورد ادوارد وتترك بيت أهلها وتدفع وراء حبا وتكون بذلك مثلاً من أمثال المخاطرة فى الحب . لكن روسو كان على طعنه على الكبراء والأشراف شديد الاحترام لهم كما كان على نيله منهم وانتقاصه شرفهم شديد الشعور بفضلهم عليه . لذلك كبر عليه أن يخاطر بابتة البارون هذه المخاطرة التى تخرج بها من سبيل الحب المنطقى المفكر المقدر قيمة كل التضحيات لتدفع بها فى سبيل لم يكن لروسو أن يعرف مسالكها . ولذلك قعدت حكمة الفتاة وضعفها بها عن معالجة هذه السبيل وفضلت البقاء فى بيت أبويها قاطعة على نفسها عهداً ألا تتزوج من سان پرى إلا عن رضا من أبيها وألا تتزوج من غيره إلا بموافقة ورضاه .

وأقام سان پرى فى باريس وجعل يخاطب صاحبه منها ويصف لها ما يراه من أخلاق أهل المدينة وما هم عليه من طيبة ورقة وظرف يكاد يبلغ النفاق ، وما تمتاز به الباريسيات من حسن اختيار فى الملبس وقصد فى الترتين بالحلى وميل للمناظر كى يراهن الناس ، وتجنب إلى الرجال وإغضاء عن الفضائل المتعارفة وما إلى ذلك مما رأى القارئ من مثله فيما مر من علاقات روسو وغيره بالنساء . وفى هذه الأثناء تزوجت كلير من المسيو دورب فاضطرت جولى لسحب خطابات سان پرى من عندها بعد ما كانت لديها فى حرز حريز . ثم لم يمض زمن طويل حتى وقعت يد البارونة على هذه الخطابات فكان ذلك سبباً فى مرضها مرضاً ألزمها الفراش وانتهى بأن قضى على حياتها .

كان لوفاة البارونة من الأثر على جولى أن كادت تنسى سان پرى بل وأن

كادت تكرهه لأنه كان سبب مصابها وسبب عارها . واشتد بها الحزن ولم تلق أمامها إلا صورة المتوفاة نسيت فيها نفسها النسيان كله . لكنها ولما تم مراسم الحزن ومواعيده . - وللحزن كما للفرح مراسم عند الناس ومواعيد - حتى جاءها أبوها يخبرها بضرورة زواجها من فولار . وبعد مناقشة وأخذ ورد ضعفت أمام رجاء أبيها . وازدادت ضعفاً حينما علمت أن فولار الغنى أصبح فقيراً وأنه لا يزال على عهده مع أبيها في طلب يدها لم يشته الجدرى الذى ترك بعض الأثر في وجهها ، فكتبت إلى حبيبها تسترجعه وعددا وحرينها ولم يتردد هو في إجابة مطلبها .

« وحسبت أن اليوم الذى أنتزع فيه منك انتزاعاً أخيراً هو آخر أيامى حتى لقد هان على أن أرى كفى وعدة قبرى ولا أرى ما أعد لزواجى . وكنت كلما اقتربت من اللحظة الحاسمة ازدادت عجزاً عن أن أنزع حتى الأول من قلبى . ولم أبلغ من جهودى لإطفائه إلا أن ازداد شدة وأواراً . ثم هدتنى هذه الجهود الضائعة فى الهواء حتى إذا كانت اللحظة التى وطنت نفسى فيها كى أقسم لغيرك بدائىم الولاء والإخلاص إذ أقسم لك قلبى بدوام حبه ومودته . وسبق بى إلى الهيكل وكأنى ضحية خبيثة لا تذر مكان تضحيته إلا رجساً ونجساً .

« وساعة دخلت الكنيسة عرتنى هزة لم أشعر من قبل بها أبداً فى هذا المكان البسيط العظيم المملوء بمجد من يخضع الكل له فيه . فقد أخذ بروحى فرع لا أقدر على تصويره ، وسرت إلى رعشة خوف هزتنى وكاد يغشى علىّ معها . ولم أستطع التقدم إلى المنبر إلا بكل مشقة ، وزاد بى الاضطراب فى أثناء الحفل حتى زادنى ما بقى لى من قدرة على تمييز الأشياء فرعاً منها . . وقد كان من أثر ظلمة المكان وصمت الحضور العميق ومظهرهم المتواضع ووجود زمرة أهلى بينهم وموقف والذى المحترم موقفاً مهوباً - كان من أثر ذلك كله أن نشر على ما سيكون معنى المهابة ، واستفز عندى التنبه والاحترام ، وصار مجرد التفكير فى الذنب كافياً ليرعثنى ويرعدنى . وخيل إلى أنى أرى رسول القدر وأستمع إلى كلماته ممثلة مجسمة حينما نطق القسيس بالصيغة المقدسة برزاة ووقار ، وبدأت لى طهارة الزواج وكرامته وقداسته مما وصف فى الكتاب المقدس بقوة ووضوح ، وآمنت بواجبات الزوجية الطاهرة الرفيعة وبما لها من خطر فى أمر السعادة والنظام والسلام وبقاء نوع الإنسان ، ورأيت الأثر الذى يترتب على القيام بتلك الواجبات وكان من أثر ذلك

كله أن شعرت فجأة بثورة قامت في داخل نفسي وبقوة مجهولة تولت لساعتها إصلاح ما اضطرب من عواطفي وأخذت ترددها إلى حمى قانون الطبيعة والواجب . فقلت في نفسي . . إن العين الخالدة المطلعة على كل شيء تقرأ الآن في خبايا قلبي وتقارن مستور إرادتي بما سيجيب به فمي . وإن السماء والأرض لشهيدتان على ما سأخذه الآن على نفسي من عهد مقدس . شهيدتان من بعد على إخلاص في الوفاء به . فهل يستطيع من يعبث بأول الحقوق أن يحترم بين الناس حقاً . . وتنطلق جولي في هذا الخطاب البديع الذي تصف فيه تطور نفسها من يوم حبها إلى يوم زواجها تحلل نفسها تحليلاً دقيقاً وتستظهر كل معنى من المعاني التي دارت بخاطرها في أثناء حفل الزواج وبعده وتبين كيف استنجدت القدر ليعينها على محبة الزوج الذي وهبها القدر إياه . . ثم تنتقل إلى وجوب الاحتماء في حمى الدين بإمعان وإخلاص . وهنا تظهر لأول مرة فكرة روسو في الدين واضحة جلية . فقد قلب ما بين البروتستانتية والكتلكة وعاش في وسط كله الإلحاد والنفي ومع ذلك ظل مخلصاً للفكرة الإلهية مؤمناً بها تمام الإيمان ، ولعل هذه العبارة من جولي إلى صديقتها أبلغ ما يعبر عن رأيه في هذا الباب :

« لم أك يوماً من الأيام على غير دين أبداً . لكني أفضل الشخص ولا دين له على من يكون ذا دين ظاهر لا يتصل بالقلب ثم يطش له الضمير ويقنع منه بصور يجعله معتقداً في الله بعض يومه ناسياً كل تفكير فيه بقية الوقت . . . » « عبد الكائن الخالد أيها الصديق الكريم الحكيم . وإنك إذن لمهلك في رجوع النفس ذلك الطيف من العقل كل ماله من الوجود مظهر كاذب وهو يفر فرار الظل أمام الحقيقة الثابتة . فليس موجود إلا من أمر الله . هو الذي يجعل للعدل غرضاً وللحق أساساً ولهذه الحياة القصيرة تقضى في مرضاته ثمناً . وهو الذي يصيح بالجنة أجرموا خفية أنهم في قبضة يده . وهو الذي يقول للعادل نسيه الناس إني على فضائلك لشهيد : . . هو مثال الكمال بهيولته الباقية . ومن هذا المثال تحمل نفوسنا صورة إن غشت عليها الشهوات فإن دقائقها مرتبطة بالهيلة الباقية تتمثل أمام عقلا وتعيته على رد ما غيره الخلط والكذب . وإني ليخال لي أن حسن الذوق كاف لمعرفة كل هذه الأمور . فما كان مرتبطاً بفكرة هذه الهيلة ولا يستطيع فصله عنها فمن الله . أما ما سوى ذلك فهو من عمل الناس . . »

وباطالة التأمل في هذا المثال الأقدس تطهر الروح وترقى وتعرف كيف تزدرى وضيع الميل وترفع عن دنىء النزعات. وكل قلب دخلت إليه هذه الحقائق العليا ينشأ على نفسه ما عند الناس من تافه الشهوات ويصل من رفعة السامية إلى التفرز من كبرياتهم ويبعده التأمل عن وضع نزعاتهم . ولو أن الكائن العظيم الذى شغل به لم يوجد لحسن أن يشغل على الرغم من ذلك به من غير انقطاع ليكون أكثر امتلاكاً لنفسه وأشد قوة وأكثر سعادة وأعظم حكمة .

وهذا التعبير الذى خطته يد جولى هو الذى سيكرره روسو بعد ذلك في هذه الرواية وفي أميل وفي اعترافاته وبقية كتبه . وهو واضح في بيان أن روسو كان بروتستانتيًا حرًا . وكان كما قال فاجيه « فيلسوفًا مؤمناً بالله ترى بروتستانتيًا وعشق البحث والاجتهاد بروح مستقلة تمام الاستقلال ، واحتفظ من تربيته بالميل إلى الدعوة للمخلوق الفاضل وبكراهيته الديانة الكاثوليكية والتفرز منها » .

وانتهت مدام فولمار بعد إرشادها صديقها سبيل الحق وبعد دعوتها إياه إلى الفضيلة الصحيحة الخالية من شوائب الشهوات بإعلان انقطاع ما بينهما وبأمره أن يكتب إن شاء أن يكتب إلى مدام دورب ابنة عمها .

ولما وصل هذا الكتاب إلى سان پرى جن ضوايه وفقدت حياته في نظره كل معنى ولم يبق لها أية غاية . ففكر في الخلاص منها وكتب إلى صديقه ميلورد ادوارد خطاباً طويلاً يفند فيه بهدوء وطمأنينة حجج الذين يزعمون الانتحار جبنًا وخرابًا على أمر الله . لكن كلمة من صديقه كفت لترده عن عزمه . ثم ظل بعد ذلك أمداً طويلاً في لندرة . ظل حتى علم أن جولى أصبحت أمًا ، فازداد همًا وكآبة . لم ينجه مذهب إلا أن سافر على مركب إنجليزية من مواعين أسطول تجارى طفق يوجب البحار والأقطار مدى ثلاث سنوات متتالية .

* * *

هذا الجزء الثالث من أجزاء الملوريز بديع بدءاً خاصاً في أسلوبه ، وفي تفكيره ومنطقه . وهو كما رأى القارئ انتقال من حكم العاطفة المطلق إلى النظر بعين البصيرة والعقل في وسائل الحياة وواجباتها . فقد انتقلت جولى دينانج - وهى الفتاة الضعيفة المستسلمة لهواجس الحب المسلمة نفسها إلى كل دوافعه - وهى المعتبرة أن قانون الحب هو قانون الطليعة والفضيلة والحياة - وهى التى نسبت

شرف مولدها ونسيت الفوارق الاجتماعية ونزلت عن تقاليد وسطها وامتيازاته لتختلط بشباب من سواد الشعب ولتدخل في حوزته وملكه - انتقلت فجأة ساعة وجودها في الكنيسة لترى في الزواج لا في الحب عماد السعادة ولتقدر كل ما كانت فيه في أثناء حبها من عماية وضلال ولتستنجد القدر أن يوفق بينها وبين زوجها ويبت علاقتها بمحبوها القديم .

تلك حركة نفسية قوية يدهش صدورها من جولى الضعيفة النفس المهمة التربية ، لكنها حركة تدل على دقة ملاحظة روسو في هذا الظرف بنوع خاص . فإن أسرع النفوس للانتقالات الفجائية هي النفوس الضعيفة . ذلك بأن ضعفها يقعد بها عن ملابسة الوسط والتحكم فيه . فتخضع لسلطان فكرة أو عاطفة أو فرد حتى تشعر بنفسها وقد جعلها ضعفها سخرية وهزواً وحتى ألبسها عاراً تهون معه الحياة . هنالك تطرف فجأة بدافع الاحتفاظ الحيوى إلى مركز جديد يحميها من عارها ومن سخرية الناس بها .

ولو لم يقف البارون ديتانج في وجه ابنته بالشدة التي وقف بها . ثم لو لم تشعر بعد ما أتت على حياة أمها وكسرت قلب أبيها بأنها على شفى الإثم والخزى والعار ، إذن لما تركت الكنيسة في نفسها هذا الأثر . ولو أنها كانت ذات نفس قوية وإرادة صلبة وشخصية ذاتية لما اهتزت نفسها هذه الاهتزازات التي رآها القارئ بل لقررت نوعاً من الحياة يتفق مع قوة ذاتيتها وصلابة إرادتها ثم هي إما واحمت من زوجها خصماً تناصبه الكفاح حياتها . أو ضعيفاً تخضعه لها . أو داهية يلعب بالحياة وبها ، وفي الحالين الآخرين تكون هي السعيدة .

ودقة ملاحظة روسو في هذا الظرف الخاص راجعة إلى أنه كان يلاحظ صورة من نفسه . وهل كانت حياته إلا سلسلة ضعف واستكانة ثم ثورة من جديد . ألا تراه وقد أقسم ألا يكون له بكابر علاقة ورفض مراراً دعوة مدام دلكسمبور له يرجع عن عزمه حينما زاره دوق لكسمبور ولا يكتفى برد الزيارة بل ينتقل إلى قصره ويعيش معه ويمضى سنين تبعاً في كنفه وحمايته . ثم ألا ترى كيف ترك الصومعة فجأة بعد ما كان مصراً على البقاء بها . فهذه الطفرات هي من نوع طفرة جولى ديتانج في ساعة حفل الزواج .

وفيما كان روسو يحوب البحار يتهاذى به السفين ما بين صقيع المتجمد ونيران

خط الاستواء وهو يزرع على جبال الأمواج القائمة المتهمة قطع حبه ويرسل في أجواء البحار تنهدات وجده وهواه كانت جولى في أحضان زوجها وكان أبنائها في أحضانها ، وكانت السعادة تحيط بهم جميعاً لولا ما كان ينقل الزوجة من أسرار ماضى غرامها مما كانت لا تفتأ تذرف عليه دمع التوبة وترجو من رحمة القدر عنه المغفرة والإنابة . وكانت ابنة عمها كليز على مقربة منها تؤاسيها ساعات ذكرها وتنصح إليها ألا تبدى من أمر هذا الماضى شيئاً إلى زوجها حتى لا تدخل إلى نفسه من الهم ما قد يعكر صفو عائلة منت عليها الأقدار بالسعادة .

ثم غالت المنون زوج كليز فانقطعت عن ابنة عمها زمناً ترى من شأن ميراث ابنتها . وفيما هى بعيدة عاود جولى رجع من صوت ضميرها ألح بها لتكشف للمسبو فولمار عن صحيفة ماضيا . وفيما هى فى مناقشة ذلك مع كليز عاد سان پرى من سياحته وتجواله .

كنا نود مع جول لمر لو نرى الموقف الذى اعترفت فيه جولى لزوجها بماضى غرامها . وكنا نريد أن نعرف أثر ذلك فى نفسه وما قام بينه وبين جولى من حديث . لكن « وسومر بذلك مرأً وكأنا تركنا نفهم أن المسبو فولمار قال لجولى ما قاله هو لتريز لفاسير حين اعترفت له بأن شاباً استغواها مبتدأ الشباب من أنها كذلك أحب إليه . أو أن المسبو فولمار وكان يوم تزوج جولى قد فقد ثروته وأصبح بعد زواجها مدير ماله وثورته لم يبق له إلا أن يذعن لكل مظاهر إرادتها . على أنه كان يعلم كل شيء قبل اقترامهما وإنما رضىه إعجاباً بصفاتها وطمعاً فى محبتها واحتفاظاً بكلسته لأبيها . ولذلك كان كل ما وقع لنا فى الهلويز عن أثر هذا الاعتراف أن كتب فولمار إلى سان پرى يقول له : « كلفت أن أكتب إليك برغم عدم سابق تعارفنا . فقد كشفت أحكم الزوجات وأعزهن لزوجها السعيد عن مستور قلبها ، وهو يحسبك جديراً بما كان من محبتها إياك ويفتح أمامك بيتاً له يسود فيه الطهر والعفاف . وإنك لتوجد فيه الصداقة والإكرام والاحترام والثقة . فراجع نفسك واعلم أنه ليس ثمت ما يخيفك . فاحضر ولا تثرب عليك . وإنك لن تتركنا إلا بعد أن نترك لك صديقاً - فولمار . » وعقبت جولى على هذا الخطاب بخاشية فيها : أحضرياً صديق فإننا ننتظرك مشوقين . ولعل لا أهتم لرفضك رجاءنا - جولى . . وأرسل هذا الخطاب وحاشيته طى كتاب من مدام دورب أبدت فيه ما لا يزال يقلبها من شوق إلى

سان پرى ومجبة له . وعطف عليه .

وعاد سان پرى بعد ما جوب فى الآفاق راضياً من العنينة بالإياب ، وأخذ هذا الكتاب فاضطربت يده وسار فى طريقه إلى كلارانس : « وكنت كلما اقتربت من سويسرا ازدادت شعوراً باضطرابى حتى كانت اللحظة التى بدت لى فيها بحيرة لي مان من أعلى الجورا لحظة سحر وبهر . وتنسمت ريح بلادى العزيزة التى أغرقت من قبل هوائن مسراتها قلبى . وهواء الألب الصافى الصحيح ، ونسيم وطنى الرقيق البالغ فى عذوبته ما لم يبلغه عطر الشرق . وتلك الأرض الغنية الخصبة ، وهذا المنظر الفذ أبدع ما وقعت عليه عين الإنسان . وذلك المقام الساحر لم أجد له فى العالم نظيراً ، ومنظر الشعب السعيد الحر . وحمال الفصل ورقة الطقس وألف ذكرى عذبة أيقظت ما تذوقته من مشاعر - تنسمت ذلك كله فسرت إلى نفسى هزات لا أستطيع تصويرها وتخيل إلى أن قد رد على نعيم المتاع بكل حياتى جميعاً معاً » .

ثم شعر بانقباض وباضطراب وخوف لما قارب منزل فولمار . لكن حسن الملقيا وقوة عزيمة جولى بددا مخاوفه واضطرابه . وقد وصف روسو حركات نفس العاشقين فى هذا الموقف بإسهاب وإبداع وقوة حتى انتهى بهما إلى الطمأنينة فى كنف الطيب فولمار بلغت به طيبته حتى أن أباح للعاشقين تبادل القبل إسفاقاً على سان پرى وأمثالاً فى شفافته من لالعج غرامه .

وبعد أيام ارتحل سان پرى فزار مدام كلير دورب ثم عاد . ولم يطل به المقام فى المنزل الجديد حتى جاءت إليه مدام كلير دورب هى الأخرى . وكذلك أصبح سان پرى بين محبوبته وزوجها وصديقه . وظلوا جميعاً سعداء بهذا العيش لا تلعب دوافع الشهوة بنفوسهم ولا يحس المسير فولمار أى غيرة من هذا الضيف الذى فتك فى الماضى بعفاف جولى بل تجمع الفضيلة بينهم على نحو ما يريدون . . ولا غرابة فى قهرهم كل نزعات الحس فقد كانت إرادتهم فى تناول أيديهم ولم تكن قلوبهم من قلوب البشر .

وهذا ما أخذه كثير من الكتاب على روسو سواء فى ذلك خصومه والمعجبون به . وللسنا ندرى هل كان روسو ملوماً بمقدار ما يظنون . فإنما وجه الغرابة أن يكون هؤلاء جميعاً معاً ثم يكونون من الطاهر ومن الفضيلة بما لم يطمع فيه بنفوس فى قصة

تأسيس على ما كان من خلوص نفسه ومن قداسه . أما اجتهادهم على هذا النحو فلم يكن غريباً في ذلك العصر ، عصر مدام دبنای و مدام دسابران و مدام ديفو و مدام دودتو و مدام دلکسمبور وغيرهن من سيدات القرن الثامن عشر كن يعتبرن أزواجهن شركاء شرعيين كل ما لهن من الشركة سر الصورة الظاهرة لكي تبدو الناس صورة مشروعة ثم لا يكون لأى من الزوجين حق الحكم على قلب صاحبه ولا على تصرفه . بل كثيراً ما كان الزوج يعتبر صورة مكمله في المنزل لا يؤبه لها إن وجدت ولا يعنى بها إن غابت . وقد بلغ من ذلك حتى روى أن أحد الأدباء ممن كانوا يحضرون مائدة سيدة من هاتيك الشريقات لاحظ أن رجلاً من زملائه على المائدة لم يحصل التعارف بينه وبينه قد انقطع عن جميعته فأخبرته السيدة أن ذلك الرجل كان زوجها وأن القدر المحتوم أصابها فيه : وليس هذا الزوج إلا مثلاً لأزواج كثيرين في ذلك العصر .

ثم إن حياة جان جاك كانت سلسلة من نوع حياة سان برى . فكانت مخالته لمدام دفانرس كمخاللة سان برى لجولى قبل زواجها . وكانت حياته مع مدام دبنای وتعلقه بـ مدام دودتو ومقامه مع دلکسمبور حبة وموق وتطلع كحياة سان برى مع جولى بعد زواجها . وكانا جميعاً يتكلفان الفضيلة القاسية لا حباً في الفضيلة ولكن احتفاظاً بمركز عجزت مواهبهما العملية وقعدبهما فقرهما عن الاحتفاظ به . لذلك لم يكن المركز الذى وضع روسو فيه أشخاص روايته غريباً عليه ولا على جمعية عصره وإن تصورناه نحن غريباً بمقارنته بجمعية العصر الحاضر . وكل ما فيه من الغرابة إنما هو ذلك الطهر القاسى الذى يتنافى مع الطباع البشرية وبخاصة عند أهل جيل إباحى رقيق فهم تمام الفهم أن الحياة غاية الحياة وأن طبق هذه النظرية الرقيقة القوية تطبيقاً فيه من الإغراق ما قد يشوه بعض فائز حسالها .

على أن روسو قصد من وضع أشخاص روايته في هذا الوضع ومن تحكيم الفضيلة فيهم وإعفائهم من غواية الشيطان وبعده غاية معينة . فقد أراد أن يدلل لأهل زمانه على أن القلب الطيب والإرادة الحسنة يكفلان الإقامة من الزلة والإقالة من العثرة . وهو بعد أن كتب الجزأين الأولين من الرواية ليرضى شهوات قلبه ويروى ظمأ عواطفه عاد فذكر مبادئه ونزعاته الخاصة فصمم على استكمال الرواية ونصب نفسه خطيئاً ومعلماً وداعياً إلى السعادة عن طريق الفضيلة والأخذ

بوحى الطبيعة . وأى رجل أجدر من روسو بالقيام بهذه الرسالة وهو ذلك الحقيقى
الوضيع المدنس الذى بقى فى حقارته وضعته حتى بلغ الأربعين من عمره ثم تشبث
بأهذاب الفضيلة وعالج عوج نفسه قصد إصلاحها فوصل من ذلك إلى مقام
محمود يغبطه عليه كل من كان للفضيلة محباً وبها متعلقاً .

وليبن الوسيلة إلى ذلك صور لنا فولار المسن الهادئ النفس القليل التعلق
بالأشياء متعلقاً بجولى ولعاً بها . فلما وقف من أيها على ماضى صلتها بسان يرى
قال إنها كذلك أحب إليه وأخذ على نفسه إسعادها . ويسر له ذلك ما حدث فى نفس
الفتاة من التغير والثورة ساعة حفل الزواج . وقد رأى القارئ أنها حرمت على
سان يرى مكاتبها يله زيارتها وأنه بعد سنين من ذلك وبعد أن أصبحت هى أمّاً
ركب البحر ثلاث سنين تبعاً فلما عاد كشفت جولى لزوجها عن سابق علاقتهما .
فكتب هو إليه يدعوه إلى منزله ابتغاء شفائه من غرامه . . وكانت حجته فى ذلك
أن الحب عاطفة سريعة إلى الزوال ، وأن جولى وسان يرى افترقا وحبهما فى
عنفوان قوته فبقى على هذه القوة فى نفسيهما برغم ما طرأ على وجود كل منهما خلال
هذه السنين . من التغير . ولو رأى كل ما حل بصاحبه لهدأت حدة عاطفته وهمد
الحب فى قلبه وانقلب صداقة لا تخاف عواطفها ولا تخشى .

ولما جاء سان يرى ورأى مدام فولار زوجاً وأمّاً وشعر بما أولاه المسير فولار
فولار من ثقة لم يدر بخاطره أن يتزل عن هذا المستوى ليكون مجرماً قديراً على
التسفل فى درك الدناءة إلى حد التفكير فى الفتك بعرض رجل ائتمنه وبسعادة امرأة
لم يزل ميله إليها شديداً ويشرف أبناء هذين الزوجين العزيزين . فظل وإياهما ينهل
من سعادتهما . لكن ذكريات الماضى كانت تهز قلبه هزات عنيفات من حين لحين .
وكانت جولى تشاركه اهتزازاته فتحول الفضيلة دون أن يحدث ذلك من الأثر أكثر
من ألم سرعان ما يتبدد ليحل محله الاغتباط بالحاضر وبما فيه من هناء وسعادة .
وهنا يصف روسو بإسهاب وتطويل يستغرق عشرات الصفائف صورة حياة
جولى وزوجها وأبنائهما على ما وجدهم سان يرى . فهو يصف خدمهم ومزارعهم
وصلاتهم بهؤلاء الخدم والمزارعين وصلات الخدم والمزارعين بعضهم ببعض . ثم
يصف منزل فولار وحديقته وطيوره . وهو يضع ما بين هذه الأوصاف الأفكار
العزيزة عليه من ضرورة تضامن الأغنياء والفقراء تضامناً أساسه العطف والرحمة

من جانب الأغنياء والاحترام والمحبة من جانب الفقراء - ومن ضرورة عدم الامتزاج بين الرجال والنساء إلا في الاجتماعات العامة والحفلات الراقصة التي يجتمع فيها الجنسان تحت إشراف الأكابر وذوى المقام - ومن مضرة البطالة وضرورة تعويد الناس جميعاً من كل الطوائف مداومة العمل . ومن ضرورة تربية الأطفال في أحضان الطبيعة وإدخال محبتها في قلوبهم حتى لا تفسدهم من بعد صناعة الاجتماع . ومن ضرورة البر بالفقراء والمعوذين ومما إلى ذلك من وسائل السعادة حسب إلهام الطبيعة - وإنك لترى هذه الأوصاف والصور والأفكار مثورة على صحائف الرواية بإبداع في الأسلوب الموسيقى الجذاب يدعك وأنت تقرؤها مسحوراً على نفسك مأخوذاً بجمال الطبيعة البديعة الذى أحاطك به روسو فأحيا حولك الغابات بأشجارها وأزهارها وطيورها وغدرانها ورقيق نسيمها وشميم عطرها حتى أنساك نفسك الوقت الذى يمر بك وأنساك المكان الذى أنت فيه .

ولم تكن هذه الأوصاف والصور خيالات شاعر ولا أحلام كاتب ولكننا قصد بها روسو أن يصور لجمعية ذلك العصر مثلاً من أمثلة الكمال الإنسانى الذى يجب أن ينسج عليه للوصول للإنسانية إلى السعادة . ولقد سار فى ذلك على مثال الأنبياء الذين كانوا يضربون للناس الأمثال ويجذبونهم إلى الفضيلة بجميل ما يصورونه من آثارها من تافه الأعمال وجليلها . فكما رتب بوذا وغيره من الرسل صور الطعام والشراب والملبس والنوم والبر بالفقير وإعانة الضعيف كذلك فعل روسو . فلم يترك حركة من حركات الإنسان إلا صورها على ما يجب أن تكون عليه من الكمال متخذاً عائلة فولمار ومن يحيطون بهم من خدم وعمال وما يحيطهم من مناظر ومظاهر مثلاً أعلى للإنسانية السعيدة . وأعلى مثل للسعادة عنده هو العيش البسيط وسط الطبيعة الجميلة بعيداً عن ضجة المدن وضوضائها وحيث الحرية الكاملة الشاملة .

على أن السعادة ببلوغ المثل الأعلى إنما تتأتى للناس إذا غنى أهلهم بتربيتهم من أول نشأتهم حسب إلهام الطبيعة ووحيا . والتربية وفق الإلهام الطبيعى عند روسو لا تكون بتقييد الطفل وتعويده عوائد الاجتماع ولكن بتوجيهه فى الطريق الطبيعى وذلك بأن يعامل ويعلم طول مدة طفولته على أنه طفل ضعيف محتاج لغيره محتاج لخدمة الذين يستطيعون تركه . وبأن لا يناقش مناقشة الكبار ذوى العقل فى وقت

لم يتكون عقله فيه بعد . . . « وإن من الأغلاط المشتركة بين جميع الآباء الذين يزهون بشيء من العرفان أن يحسبوا أولادهم على جانب من العقل من يوم مولدهم وأن يخاطبوهم مخاطبة الرجال من قبل أن يستطيعوا التلفظ والكلام بدعوى أن العقل هو الوسيلة لتعليمهم . وذلك وهم . وإنما يجب استعمال كل الوسائل ليتفتح الذهن . فإن أشق ما يصل إليه الإنسان وأحوج له لطول الزمن هو العقل . ومخاطبة الأطفال من نعومة أظفارهم بلغة لا يفهمونها تعودهم على الاكتفاء بالتشديق بالألفاظ وعلى تقليد ما يقوله الآخرون ثم يحسبون أنهم أوتوا من الحكمة ما أوتى أساتذتهم . ومن شأن ذلك أن يجعلهم مجادلين جبا في الجدل حتى تراك ولا تصل منهم إلى ما كنت تحسب أنك واصل إليه من طريق العقل إلا بوسائل الإرباب مضافاً إليها ما تستدعيه غالب الأمر من الكبرياء والتعاضد . . . »

وهنا يعرض روسو صورة من فكرته في التربية قد لا يحسن أن نسوقها قبل الكلام عن كتابه (أميل أو التربية) فثم موضع عرضها على شكل أكمل وأنتم .



ولما فرغ روسو من وضع قواعد السعادة حسب إلهام الطبيعة ووحيا سواء في شأن تربية الناشئة أو في الحياة المنزلية والاجتماعية رجع يفكر في شأن أشخاص روايته بعد ما تركهم زمنا طويلا وبعد ما نسى القارئ أو كاد أنه يقرأ رواية قصصية تحكى حوادث وعواطف وميول وشهوات الأشخاص الذين ألفهم والذين ألفت الرواية من أجلهم . لكن الموقف الذي وصل إليه أشخاص الهلويز لا يتحمل نشاطاً جديداً ولا حركة . إنهم جميعاً أشخاص كانوا على جانب من النقص أو من سوء الحظ ثم عالجوا الحظ وعالجوا الفضيلة وعالجوا السعادة فوصلوا منها جميعاً إلى كمال لا يعرف الإنسان له مثيلاً إلا فيما توصف به حياة أهل حنة الخلد فلم يبق لهم إلا أن يخلدوا في هذه الحياة ولم يبق لرواية روسو موضع للانتهاء .

ولقد شعر روسو بذلك تمام الشعور . وكان طبعياً أن يشعر به وقد بدأ روايته وسار فيها من غير نظام خاص أو ترتيب معين . فلما استحس دقة المركز لم يجد وسيلة يخرج بها من المأزق ويختم بها روايته إلا ابتداء حادثة غير منظورة تضع حداً لحياة أكثر أبطال الرواية خطراً .

أما الصورة التي رسم بها روسو هذا الحادث الحاسم والعواطف التي أحاطها

به فلا تخلو من جاذبية ككل ما بصوره ويكتبه . فقد اقتضت إرادة ميلورد ادوار أن يسافر وسان يرى إلى إيطاليا . وفيما هما في الطريق قضت ظروف أن يمضيا الليل في فلنيف . وكان من حظ سان يرى أن ينزل في غرفة نزل فيها في إحدى سياحاته الماضية إبان وجده وهيامه . فهاج ذلك قلبه وعادته الليل أحلام جعلته يرى بينه وبين جولى حجاباً كثيفاً لم يتمكن معه من تبين صورتها .

ولما وصلا إلى رومة شغل ميلورد ادوار بعلاقات غرامية بينه وبين إحدى المركيزات كما أخذته عن نفسه فتاة تدعى لور . وقد توفيت المركيزة بعد زمن ففكر ميلورد في الاقتران بلور . وهنا رأى سان يرى في ذلك ما يحط من قدره كرجل من أشرف إنجلترا . لذلك جاهد حتى وصل لإقناع الفتاة أن تلجأ إلى الدين وأن تظهر في حمى الله .

أما جولى فقد رأت فيما علمته من تذكر سان يرى سابق غرامهما وفيما قد يجبر ذلك إليه من محاذاة الخطر أن تنصح إليه بالاقتران بآبنة عمها كبير . وتدرعت إليه بحجة غير مشرفة له . فقد خشيت أن يفسد طمأنينة تابعاتها وخدمتها باتصاله بهن ولكي تبرر هذا المطعن قالت : « لنقل كل شيء ما دام حتماً أن نقوله . ولنسعد التواضع في سبيل محبة الفضيلة محبة صحيحة ! فالرحل لم يخلق للعزوبة . ومن الصعب ألا تجر حالة مخالفة كل المخالفة للطبيعة إلى اضطراب واضح أو خفى . فما هي الوسيلة إلى التخلص من عدو لا يفتأ الإنسان يحمله في ثنايا نفسه .

« انظر في البلاد الأخرى إلى أولئك الغلاة الذين يتخلون عن أن يكونوا رجالاً ترى أن الله يجزيهم عن غوايتهم فيتركهم ونفسهم يدعون لنفسمهم الولاية وهم أدنياء ينطوى ادعائهم على الرجم والخطيئة ويسقطون إن حقروا الإنسانية إلى ما دون الإنسانية » .

(وكذلك ترى روسو لا يجد فرصة يظهر فيها فضل البروتستانتية على الكاثلكة إلا اتهمها) .

على أن هذه الحجة لم تمنع سان يرى من أن يشعر بما في خطاب صاحبه من الإهانة له وإن مر بها من الكرام باللغو . وليجيب على اقتراحها حلل عاطفته

بالنسبة لابنتي العم جميعاً تحليلاً دقيقاً بديعاً انتهى منه إلى أن جولى هى المخلوق العزيز لذاته ، يحبه هو ، وتحبه كلير ، ويشترك هو وكلير فى محبته ، ويتحجب هو وكلير بسبب هذه الشراكة . فإذا ارتبطاً برباط الزواج اقتضى ذلك حتماً ألا تكون جولى بينهما وهو محال . وإذن فمحال أن يكون الزواج .

ولم تجد جولى فى رده مقنعاً فأعادت الكرة وأوضحت له ما تشعر به من السرور لفكرة ارتباطه وإياهم برابطة النسب حتى يضمن ذلك بقاءهم جميعاً معاً فتبقى تلك السعادة التى ينهلون من عذب تسيرها مذ عاد سان يرى من سياحته التى بلغت حتى أخرجت جولى عن طوقها ودفعت بها إلى الإمعان فى التدبير إمعاناً كاد يصل بها إلى بعض درجات المشاهدة الروحية .

على أن هذه المشروعات الطويلة العريضة التى ملأت ريشة روسو بوصفها جزءاً كبيراً من روايته والتى كانت تصلح مقدمة لحوادث ووقائع جديدة تستغرق ألف صفحة كما استغرقت الهلوىز ذهبت كلها هدراً . فقد خرجت جولى مع أهلها للترهة على شاطئ البحيرة وفيما ابنها يجرى سقط فى الماء فألقت بنفسها وراءه وأنجته وخرجت ولكنها مرضت على أثر ذلك مرضاً حقق حلم سان يرى وجاء على حياتها .

وفى أثناء مرضها عرضت على القسيس اعترافها الدينى الذى شرحه روسو بعد ذلك فى أميل عند كلامه عن تعاليم قس من السافوا . وبموتها انتهت رواية روسو الكبيرة .

ليس عسيراً أن يرى الإنسان ضعف الصنعة الروائية فى هذه الرواية وبخاصة فيما بعد زواج جولى ويأس سان يرى . فقد كان فى مقدور المؤلف أن يصور من التطورات النفسانية الممكنة فى عالم البسيكولوجيا ما شاء من مختلف الأشكال . وكان فى مقدوره أيضاً أن يرقى بنفس أشخاص روايته إلى المظهر والفضيلة عن طريق التوبة والتكفير على صورة روائية دقيقة . لكن روسو ترك الصنعة الروائية ولجأ إلى تسطير تصورات وأحلامه وأوهامه فى كيفية حصول الإصلاح الاجتماعى فى جمعية ذلك العصر الفاسدة .

على أن هذا الضعف الفنى لم يقلل من نجاح روايته ومن عظيم الإقبال على قراءتها لأول ما نشرت . وصار نجاح خطاب روسو إلى دالمير وخطاب التفات .

وخطاب العلوم والفنون ضعيفاً بل فاتراً إلى جنب نجاح الهلويز . ويذكر القارئ كم كان نجاح هذه الخطابات عظيماً حتى عد حاسماً ، وكان أكبر أسباب نجاح الهلويز إلى جانب قيمتها الأدبية الكبيرة عظيم إعجاب صالونات السيدات بها . فقد خرجت هذه الرواية على ما كان متعارفاً قبلها من وصف حياة المرأة في لحظ الغواية من لحظات وجودها ووصفت حياة نسائية كاملة أرضت سيدات ذلك العصر ذوات الذكاء والآداب . قال قاحيه : « لقد وصفت لمن امرأة لها ضعفها ولها فضائلها ولها خلقها ، وقد ملقت هذه الرواية فيهن بعض عيوبهن وبعض ميوهن الطيبة كما ملقت كبرياءهن مباشرة وبنوع خاص ، ثم إنني نسيت الحاجة إلى الدموع حاجة لم يقم أحد بسدادها من عهد راسين ، فقد اجتراً هذا الرجل على استبكتائهن لا بتكديس المصائب الشنيعة كما فعل يريفو في قصصه المطولة . بل من طريق آلام المحبين الرفيعة الكريمة صورها . على ما قال سانت افرمون . في قصة بسيطة الوضع - وإن تلك مزيفة أشد التزييف - يحب أبطالها الطبيعة ويتشبهون الألم » .

وحاجة السيدات والشباب بل الشيوخ إلى الدموع من حاجات الحياة الماسة . وذلك بأن الدمة هي ثمرة العاطفة الشبيهة . هي الجواب الناطق في صمته بمعاني اللذة والألم والسرور والانقباض والحب والكره والفرح المفرط والحزن الألم . هي النفس لكربة المكروب والضابط لفرحة النشوان واللؤلؤة يلتقطها المحب بين شفتيه ولا تزال فوق خد محبوبه والتجاوب الموسيقى للتهد العميق يدفع به الألم المبرح من أعماق الجوانح ، وخير الدموع وأحلاها دمة الوجد والتذكر . وقد جف الأدب الفرنسي بعد راسين وزاده جفافاً اتجه تيار الميل العام إلى التعقل الفلسفي وانتشار ذلك بين طبقات الرجال والنساء واتجاههم جميعاً صوب الإلحاد والنفي وتشبيهم في محاربة الدين محاربة لا هوادة فيها . فلم يكن بد من كاتب حتى العاطفة قوى الحس شديد الإحساس غزير الدمع رقيق الشعور ليدفع إلى هذا الجفاف روحاً جديدة تخاطب القلب وليدر من دمه على العواطف المجذبة بسبب خضوعها للشهوات المتحركة وإبلا يعيد إليها حياتها وخصبها . وأى كاتب أقلر من روسو على القيام بهذا المجهود العظيم الذي هز قواعد العصر الأدبية والاعتقادية .

لقد عهدنا روسو في حياته العادية غزير الدمع إلى حد فوق المعقول . فهو يذرفه لكل شيء وللأشياء . يذرفه لخروج دوق لكسمبور مع كوانديه ليسير وإياه بعض الطريق معتبراً في ذلك من التنازل ما يدل على عظيم طيبة قلب هذا السيد العظيم ، ويذرفه حين يدخل غرفة البغي فيراها على جمالها مسلمة للكافة يلهو بها هو وغيره ، ويذرفه على أيدي وتحت أقدام مدام بازيل ومام دلارناج ومام دودتو وغيرهن لغير سبب يستعبر له أى رجل سواه . . لذلك لم يلبث أن أطلق عنان قلمه في الهلويز حتى أفاض محاجر عشاقه بدموع مخلصه صادقة لا يستطيع قارئ أن يمنع نفسه فلا يشارك فيها أصحابها إلى حد قل أو كثر . فضلا عن سداد الهلويز للحاجة إلى الدموع واستفزازها للعاطفة الخالدة فهي قد نشرت في جو ذلك العصر المترف البعيد كل البعد عن مظاهر الطبيعة البكر أبهى صور الطبيعة وأحلاها ، وما أكثر ما يتسلى المترف بالصور عن الحقائق وما أكثر ما تكفيه نقوش الرسامين وأغاني المطربين وروايات المسارح عن الغابات والأشجار والأطيار والحياة الحية بدهابها وحيثها وجمالها وجلالها وأغاريدها ونجواها . . بيد أن رواية روسو كانت أبعد من ذلك أثراً . فهي بنشرها صوراً لطبيعة حية ناطقة في مقاصير السيدات قد أثارت في نفوس أهل ذلك الجيل الميل للرجوع إلى أصول هذه الصور ودفعتها بذلك إلى حب المتاع بالطبيعة البكر في بكورتها ذات البهاء والجلال . وما كان أبعد هذا الميل أثراً إبان الثورة الفرنسية . ولقد جر الميل إلى المتاع بالطبيعة حب البساطة بما أبدع روسو من وصف هذه البساطة وبيان ما تؤدي إليه من السعادة في الحياة . والواقع أن أهل العصر كانوا يشعرون بثقل حمل الحياة المترفة ولكنهم كانوا لا يجدون عنها حولا لأنهم كانوا يعتبرونها ضرورة من ضرورات الوجود . فلما صور لهم روسو جمال البساطة وعظمتها بدعوا يشعرون أن البساطة ليست سيئاً من أسباب الحقايرة ولا الضعة ، وأن الإنسان يستطيع أن يكون بسيطاً وعظيماً معاً .

على أن أبدع ما في رواية روسو ارتفاعه بسان يرى ويجول من درك الدنس والخطيئة إلى ذروة الطهر والفضيلة على سلم التوبة والتكفير ، ثم معادلته بين عذاب الاستسلام للخطيئة على لذة هذا العذاب وطمأنينة النفس الفاضلة طمأنينة تبلغ حد السآمة ، وتصويره جول في التجائها إلى حمى القداسة الروحية

تريد الوصول منها إلى حد الكمال ، ووصفه ما تجد هذه المرأة الفاضلة في ذلك من المشقة ، وكيف تذهب المشقة عنها سامة الطمأنينة .

ولسنا في حاجة لأن نعيد أن الأسلوب الموسيقي العذب الرقيق المحزون الذي امتازت به هذه الرواية كان من أكبر أسباب الثورة التي أحدثتها في الأدب . فقد أحدثت في الأدب ثورة بالفعل . كان الأدب الروائي مقصوراً قبلها على الوقائع التاريخية المطولة الكثيرة الشعب والمملوءة بالمجازر أو الدسائس أو بالغرائب التي يذهل أمامها الخيال ، ثم تبعثر بينها بعض الأفكار الجافة . فخلقت الهلوز أدباً لا يعرف الوقائع الكثيرة ولا يعرف الأوهام والخيالات ، وإنما يعتمد على وقائع قليلة بسيطة متعارفة يقيم عليها بناء الرواية ثم يملأ الباقي بزخرف الوصف ودقائق التحليل ورقيق العواطف . ويغلو في ذلك إلى حد يرفع الإنسان عن مستوى الإنسان في تفكيراته وفي عواطفه وفي حسه وإحساسه .

وهذا الغلو من ناحية وعدم التقيد بالوقائع التاريخية من الناحية الأخرى هو الذي جعل هذه الرواية طليعة للرومانترم في فرنسا . فقد كان الأدب قبل ذلك إنشائياً (كلاسيك) كما سبق بيانه . وكان نزاعاً للرجوع إلى آداب اليونان والرومان والصدور عنهما وورد مناهلهما واعتبارهما في الأدب مثال الكمال . على أن الخروج عليها بدأ في ممالك أوروبا عدا فرنسا في أيام ثورة الإصلاح الديني التي قام بها لوثر وكلفن وكوسوث . وكان شكسبير في كثير من رواياته رافع لواء الخروج إلى ميادين الحرية الأدبية في حدود العقائد السائدة . لكن فرنسا بقيت مقيدة بالكلاسيكزم وبقى راسين المثل الأعلى في الكمال الأدبي لتقيده به أكثر من سواه . وكورنى الذي كان من أبطال هذا الأدب لم يسلم من النقد لأنه كان يندفع في بعض رواياته إلى خارج حدوده . أما موليير فقد رفع علم الثورة ولكنه بقي في ناحية الهزليات (الكوميك) فاعتبر صاحب نوع في الأدب جديد لم يؤثر على كمال راسين ولم ينقص شيئاً من مكانة أدبه . ولما جاء القرن الثامن عشر وبدأ التغيير لم يستطع أحد أن يواجه قواعد الأدب المقررة وأن يعلن وجوب تصوير الأدب بصورة العصر الذي يعيش فيه ، وظلت الروايات التي من هذا النوع تعتبر خارجة على معنى الكمال الأدبي . ولم يكن إلا الشريد روسو ، هذا العاشق للطبيعة الهائم بجمال سويسرا المغرم ببحيراتها العائش في نفسه بنفسه لنفسه هو القدير على

الخروج بالهلويز لتكون طليعة للرومانتز الرومانسك^(١) .

كان طليعة للرومانتز لأنه ترك الماضى بعجمته وترك اليونان والرومان وانتزع روايته من الحياة المحيطة به وأقام أشخاصا بين الأشخاص الذين عرفهم والذين كانوا يعيشون معيشة كل أهل زمانه . وكان رومانسك (روائياً) لأن أشخاصه كانوا فى عواطفهم وفى حياتهم وفى تفكيراتهم روائيين يغلون فى كل ما يخصهم يحبون إلى حد الجنون ويضعفون إلى حد الجريمة ويتوبون إلى حد الطهر الأقصى ويعيشون معيشة حلم وأمل بحث . ولعمرك هل عرفت فيمن عرفت أمثال جول فى ضعفها وفى عقلها وفى منطقها الخطأى وفى توبتها وفى مقامها بين زوجها وعشيقها وفى موتها واعترافها . أم هل عرفت مثل زوجها وفلسفته التى بلغت من تحكيم العقل أن أعدمت عنده كل عاطفة وكل شعور وكل أثره وكل غيره . وسان يرى وكليز وميلورد ادوار . هل فى الحياة أشخاص مثلهم . أو أنهم جميعاً خلق خيال متوهج يبلغ من بريقه أن يسي القارئ بله القارئة عن نفسه ويسلبه وقته وهو بذلك فرح وله مستريح . أخشى أن أكون قد غلوت . فقد ظهر فى عالم الأدب بعد اثنتى عشرة سنة من ظهور الهلويز كتاب صغير الحجم إلى جانب الرواية الضخمة . كان روائياً (رومانسك) أكثر من رواية روسو . وحاز من النجاح ما حازت إن لم يكن أكثر . أقصد قصة «آلام فرتر» التى وضعها الكاتب الفيلسوف الألمانى جيت Goethe وفيها قص حديث غرامه مع شارلوت ووضعها فى صورة المراسلة ووصف فيها حالاً نفسية تريد فى دقتها الفلسفية على حال سان يرى بكثير . ولستأ نريد فى هذا المقام أن نقارن بين الكتائين إلا من حيث تشابههما فى الوضع ، ولأن فرتر كان يعشق شارلوت المخطوبة إلى ألبير كما كان سان يرى بهم بجول زوج فولمار ، ولأن ألبير وفولمار كانا على درجة واحدة فى فلسفة الغيرة . أما كتاب جيت فيمتاز بأنه أصدق لهجة وأقوى عاطفة . ويرجع ذلك إلى أن جيت كتب قصة حبه ولا يزال حبه ملتبهاً . فلما أتمها شعر بحبه وقد تلاشى وكأما كان قد ملك شارلوت بنشره قصة غرامهما . أما روسو فكان يقص أحلامه وأوهامه ويحكى فى شيخوخته ذكريات شباب مفقود . كذلك فإن الحادث الحاسم فى رواية روسو سخيئ مصطنع . أما فرتر فقد بلغ من شدة وجده حتى انتحر هياماً بحبوبيته وحتى نشر بذلك فى جو أوربا كلها

فكرة انتحار العاشق الذى أسقط فى يده .

إذن فقصة جيت هى قصة الحياة والحب والموت . وقصة روسو هى قصة الحب المتطايير على أجنحة الخيال والوهم . وإن يك وهمه بديعاً وخياله ساحراً . على أن سحر خياله وإبداع وهمه لم ينس أهل عصره ما نقص قصته من صنعة روائية . فقد لاحظ كثيرون - ومنهم مدام دبنائى - أن المؤلف كثير الظهور فى خطابات أبطاله . والواقع أن أكثر من نصف الرواية لا يخص أبطالها ولا يتعلق بوقائعها وإنما هى آراء روسو فى المبارزة وحياة باريس والاقتصاد المنزل والتربية وما سوى ذلك مما مر بك . وتلك آراء لا تقتضيها مواقف أبطال الرواية . فدرسها فيها هو إذن حشو شنيع تأباه الصنعة كل الإباء .

كذلك فإن مواقف الرواية ملفقة تلفيقاً مدهشاً لا يبرره إلا حياة روسو المدهشة . على أن بين الموقفين من الفرق أن روسو لم يكن يوماً من الأيام مختاراً فى حياته ، على حين كان أشخاص روايته مطلقى الاختيار فى كل ظروف الحياة . فهو لم يعيش إلا كما أرادت السيدات دفارانس ودبنائى ودودتو ودلكسمبور . أما جولى فكانت من يوم اقترانها تعيش كما تشاء ، وكان كل المحيطين بها - حتى سان برى - يكيفون عقولهم وقلوبهم كما يحبون ويزجون بها فى أعماق التصور الروائى طوعاً واختياراً .

ولم يكن ذلك بالغريب فيهم إذا نحن رجعنا إلى منطق جان جاك . فقد كان منطقاً تحكيمياً قائماً على أساس من الإلهام فى أبسط درجاته أكثر صدوراً عن دفعات العاطفة والشعور منه عن وزن العقل للأشياء وتقريره قيمتها وتحليله إياها . وكانت الأشياء كلها مادية يغشاها أمام عقله ستار من الخيال فيخرجها عن صورتها العادية وعن صورتها المعقولة أحياناً .

هذه عيوب تبدو لنا اليوم جسيمة بالغة . لكنها لم تضعف من قيمة رواية روسو ولم تقف فى سبيل نجاحها ، نجاحاً فاق كل ما كان يطمع فيه غيره من الكتاب . ولا عجب فهى تخاطب الإحساس والقلب بلا واسطة وتصل إلى رحيلة الفؤاد وتهز خفايا الجوانح بما تعبر عنه من مختلف الوجدانيات وما تنشره من بدائع صور الطبيعة الناطقة ، وما تجريه من دموع ، وما تثيره من توجعات .

وما زلنا ولن يزال من بعدنا يعجب بما فيها من صور يَرّ بها روسو أدباء عصره

وكتاب القرن الثامن عشر في التمثيل والحس والخيال ووصف الطبيعة وإن لم نتشارك نحن ولا من بعدنا من أهل ذلك العصر حين جنوا بها جنوناً .

ولقد كان روسو في حل من أن يتذوق لذة هذا النجاح كاملة لو أن نفسه كانت مطمئنة ولو لم يزدد بنجاحه اضطراباً بين ماضيه الحقيق وعظمته الحاضرة وتردده الذي كان سبب اضطرابه . ولو أنه من الإقدام ما كان فولتير أو عشر معشار ما كانه نابليون جلس بعد ذلك النجاح على عرش أعز قائمة من عروش الملوك ولما قدرت حكومة على أن تصدر قراراً كالذي صدر بالقبض عليه بعد نشر كتاب التربية ولكن صاحب اليد والمن على جماعة اللكسمبور بالإقامة بين ظهرانهم . لكن شيئاً من الضعة كان عالقاً بنفسه ممتزجاً بوجوده طبيعياً فيه فلم تقو الظروف على التغلب عليه أو إخفائه . ف شعر كأن الناس طراً يحسدونه حتى أخذ على مدام دلكسمبور شيئاً من جفوته . لكنه بقي في تعلقه به تعلق الصغير الكبير والتابع بالمتبوع يتعزى عن جفاء السيدة برقة زوجها ويحس بضرورة بقاءه إلى جانبه يعزیه عن مصائبه في فقد أخيه وابنه الوحيد وابن ابنه حتى ظهر كتاب العقد الاجتماعي وكتاب التربية في السنة التالية (١٧٦٢) . وكان ظهور كتاب التربية بدء عودته للحياة المتشردة ، التجأ إليها بسبب قرار برلمان باريس بالقبض عليه وفراغه إلى سويسرا على النحو الذي شرحناه في الفصل السابق .

والقارئ لا شك سيدهش بعد تحليلنا كتاب التربية للسبب الذي أدى إلى صدور قرار البرلمان ، وسيرى مبلغ التطور العظيم الذي تم في العصر الأخير من عصور الإنسانية والذي يرجع الفضل فيه للثورة الفرنسية التي اتخذت روسو مسيحها الهادي ونبيا المرسل . وإنه بعد ذلك ليزداد تقديراً لهذا المتشرد الوضيع الطريد واحتراماً لتبوغ نادر المثال . فإنما نبوغ روسو مصدره القلب ومكانه موضع الإيمان في النفس .

٢

للإنسان طيب بفطرته . وإنما أفسده الاجتماع الذى غشى على تلك الفطرة بما أوغل فيه من صور الحضارة وبابتعاده عن الحال الطبيعية وإمعانه فى ذلك حتى بلغ غاية التدهور فى القرن الثامن عشر . ولا سبيل لإصلاح هذا الفساد إلا بوقف تياره والعودة بالأخلاق والعوائد والعقائد والقوانين وكل ما فى الاجتماع إلى أحضان الطبيعة والسير على نظامها وستنها . يومئذ تزول من الاجتماع سمومه ويرجع الإنسان طيباً بالطبع كما كان .

ومن العبث محاولة هذه العودة من طريق الملوك والأشراف والكبراء . فلو أنك أقنعت هؤلاء جميعاً بضرورة تغيير النظام الفاسد الذى هم فيه لما وصلت من إقناعهم إلى طائل . فإن الحياة والعادة طبيعة ثانية . وهم قد جمدوا عند ذلك النوع من العيش بعد ما عانوه سنين طوالاً . وإنك لن تنقل رجلاً من الأبيقورية المتطرفة إلى الرواقية المتطرفة عن طريق إقناعه بأفضلية مذهب على مذهب .

ما هى إذن وسيلة روسو إلى الإصلاح الذى ينشده ؟

وسيلته التربية . فهو يريد أن يدع جانباً ذلك المجتمع الفاسد الذى يحيط به ، والذى يخضع هو لحكمه خضوعاً يضطره مع الطعن عليه إلى نملقه ، ومع احتقاره إلى إكباره ، ومع الإيمان بفساده إلى الارتقاء فى أحضانه ، ليمد سلطانه على مملكة الأطفال البريئة الضعيفة العاجزة عن المقاومة المستعدة للتأثر وللانطباع فى قالب الطبيعة الذى يهيئه هذا المصلح الأخلاقى لها .

ولإيضاح هذه الوسيلة وضع كتابه عن التربية .

فبعد ما فرغ من روايته فى سنة ١٧٥٨ وبعد ما وصل من تطهير أبطاله فيها أن جعلهم يعيشون وفق قانون الطبيعة ويربون أولادهم مستلهمين وحياً عمداً إلى وضع كتاب (أميل أو التربية) وانقطع له وعنى به حتى أتمه وطبعه بمعونة المسيو (مارب) ثم أخرجه للناس فيما يزيد على الألف من الصفحات .

لم يحدث ظهور أميل ما أحدثته الهلويز فى الجمهور من ضجة . لكن ذلك

لن يكن راجعاً إلى قيمة الكتاب ونقد القراء له . وإنما كان سببه ما تهامس الناس به من أن للكتاب ولؤلفه في البرلمان شأنًا وأن البلاط عنه غير راض .

و (التربية) لا شك خير كتب روسو بإجماع الكتاب قدماء ومحدثين ، وهو من خير ما كتب في موضوعه . وليس يعيبه ما فيه من نظريات خيالية وأخرى فاسدة . فهو في مجموعته الثمرة الناضجة التي أنتجها عقل جان جاك ، وهو أدق كتبه ملاحظة للواقع وأقربها لمنطق الفلاسفة الوضعيين وأسمائها غاية وأبعدها أثراً .

و (التربية) ليس الأول مما كتبه روسو في هذا الموضوع ولا آخره . فقد عرض له في كثير من خطباته الخاصة وشرحه بإيجاز في مقال نشرته الانسيكلوبيديا بعنوان الاقتصاد السياسي وعالجه في رواية الملوك ثم عاد إليه بعد نشر أميل في خطابه عن حكومة بولونيا . ولا عجب فقد دفعت الأقدار بروسو فكان أخلاقياً . والتربية هي الأساس الذي يجب أن تشاد عليه قواعد الخلق وكانت موضع بحث كثير من المؤلفين في ذلك العصر .

لكن روسو لم يكن أخلاقياً بطبيعته ولا بنوع تعليمه . بل كان أخلاقياً بالمصادفة . وقد كانت نشأته الأولى مثلاً أعلى لسوء التربية ، أو بالحرى لعدم التربية . وإن ما تقضت فيه سنه الأولى من ألوان الفاقة والتشرد والبؤس وضعة النفس وخدمة الغير وما لوث ذلك به نفسه من خباثات الكذب والسرقة وعدم الوفاء وسائر النقائص ليبعده عن كل صلاح لوظيفة الأخلاق المهذب الداعي إلى الفضيلة وإلى الرفعة الخلقية . كذلك لم تكن معالجته الموسيقى إلى سن الأربعين من مهينات المصلح الأخلاق . وإنما هي المصادفة التي أدت إلى نجاح خطاب العلوم والفنون ونواله جائزة أكاديمية ديجون ومعارضة الكثيرين له وإجابة روسو إياهم وتحمسه لفكرة الرجعة إلى الطبيعة - هذا كله هو ما جعل منه الرجل الأخلاق نصير الفضيلة وبطلها .

وهو مؤدب بالمصادفة أيضاً . ولعل القارئ يذكر فشله في تربية أولاد المسيو دمايلى بليون بعد مقامه ستة معهم ويذكر كيف انتهى بأن سرق نبيذاً من كهف المنزل ثم استقال فأقبل .

لكنه مع كل ذلك نابعة . فلم تكف فكرة الحال الطبيعية تملكه حتى تمددت في خياله وأخذت عليه حسه وملأت كل وجوده فقلبها على كل وجوها واستثمرها

فى شتى مواضع نظره وتفكيره .

ولما كان خطيباً فى كتابته قوياً فى أسلوبه وكان قد طعن على النظام المحيط به وعلى الكبراء الذين كانوا فوق المطاعن وعلى السيدات موضع تمليق الملوك والأشراف والأدباء فقد حلق الكبراء به تعجباً واحتقاراً وتطاع الناس إليه إعجاباً وإكباراً . أما السيدات فمال بهن ضعفهن إلى العطف عليه والتزلف إليه . فمال هو إلى ناحيتهن . يدفعه ولعه الجنونى بهن . ولم يمنعه طعنه عليهن ، عن البقاء فى كنفهن ، والخضوع لكل أوامرهن ، وتوثيق عرى روابطه بهن ، فجلس منهن مجلس القس المدنى يستمع لاعتراقاتهن ، ويهدين أقوم سبل الحياة ويسدى ثمين النصيح إليهن ، والحق أنه ترك مجموعة نفيسة من الخطابات التى بعث بها لمستصححاته تحوى خير الآراء فى شتى المسائل وفى التربية .

وبدلنا ما ورد فى (الاعترافات) على أن كتاب التربية لم يوضع قصداً ولا على نظام معين . وإنما « ألفت مجموعة هذه الملاحظات والتفكيرات الخالية من الترتيب والتتابع إجابة لرغبة أم صالحة قادرة على التفكير . وقد شرعت أول الأمر فى وضع مذكرة من بضع صحائف ثم استهوانى الموضوع بالرغم منى فأصبحت المذكرة أشبه بكتاب هو لا شك ضخم بالنظر إلى ما يحتويه ولكنه صغير جداً بالنسبة للموضوع الذى أعالجه . . . وسيكون ما أذكره عن أهمية التربية الصالحة قليلاً . كذلك فلن أقف لإثبات فساد التربية الحاضرة فقد أثبت ألف غيرى ذلك من قبل وليس من شأنى أن أحشو كتاباً بما يعرفه الناس جميعاً . وإنما أرى أن صيحة ارتفعت من زمان بعيد ضد طرائق التربية الحاضرة ولم يعن أحد باقتراح ما هو أحسن منها » . .

إذن فقد وضع الكتاب بادئ الرأى إجابة لرغبة سيدة من سيدات روسو . وضع ليكون مذكرة ثم امتدت صفحاته إلى الألف عن غير شعور من مؤلفه . . وضع كما وضعت الهلوىز سداداً لغرام روسو بالنساء ثم امتدت صفحاتها إلى الألف دفاعاً عن روسو وتحجيذاً له وتمجيذاً لحياته .

وكما كان سان برى صورة لروسو ، فسيكون أميل ومؤدب أميل صورة لروسو أيضاً . وكما كانت نقائض سان برى وسيلة سما بها إلى ذروة الفضيلة التى سما روسو إليها ، فسيكون أميل صورة روسو فى صغره وستكون تربية أميل مشابهة

لترية روسو وسيصير أميل رجلاً فاضلاً مثلما صار روسو رجلاً فاضلاً . وليس في ذلك كله من عجب . فقد كان روسو يتوهم نفسه مثلاً أعلى لصورة الكمال الأكمل استهل روسو كتاب التربية بكلمته المشهورة « يخرج كل شيء حسناً من بين يدي مبدع الكائنات ثم يعتوره الفساد والنقص بين يدي الإنسان . فهو يكره أرضاً على أن تغزو نبات أرض أخرى وشجرة أن تحمل ثمر شجرة أخرى . وهو يخلط الطقوس والفصول ويخصي كلبه وحصانه وعبداه ويقلب كل شيء ويفسد كل موجود ، وهو يحب الشهوة ويهوى الشناعة ولا يرتضى شيئاً على ما صورته الطبيعة ، حتى ولا الإنسان . بل هو يريد مهذباً كما يحب كأنه حصان الملعب . ومشدباً كما يريد كأنه شجرة في حديقته » .

عارض روسو في هذه الجملة ما بين سنة الطبيعة وسير الاجتماع وندد فيها بالحضارة وما تجر إليه من تشويه وإفساد وإتلاف . وهذا التشويه والإتلاف هو أساس المدنية وأساس تعس الإنسانية . ولو أن الإنسان لم يسترسل مع كاذب غروره يريد إصلاح ما جعلته يد القدر صالحاً بطبعه لظل الناس في سكينتهم ولا نزلت بهم مصائب الهم والفاقة والتعس فليرجع الناس سيرتهم الأولى حتى يرجع إليهم نعيم الطبيعة .

والتربية هي وسيلة الرجعة « فنحن نولد ضعافاً فتحوجنا القوة ، ومحرومين من كل شيء فتحوجنا المعونة ، وبلهاء فيحوجنا الحكم والتقدير . وكل ما ليس لنا يوم نولد ونحتاج إليه حين نكبر إنما نحصله بالتربية . والتربية تحصل لنا من الطبيعة ومن الناس ومن الأشياء . فالنمو الداخلي لقوانا وأعضائنا يتأتى من تربية الطبيعة . ومعرفة الوسيلة للاستفادة من هذا النمو تتأتى من تربية الناس . ومحصول تجاربنا الذاتية عن الأشياء التي تحيط بنا إنما نحصله من تربية الأشياء » . فإذا نحن وجهنا هذه الوسائل في سبيل الطبيعة حصل لنا الرجل الطبيعي على أتم معانيه .

لذلك يجب أن تكون غاية التربية عن أى طريق وصلتنا أن تنمى في الإنسان من الملكات ما يستطيع معه مكافحة الحياة بقوة وصلابة وشدة وأن تقوى ذاتيته إلى أقصى الحدود . وتلك غاية تتناقض مع ما ترمى إليه التربية الحاضرة تمام التناقض . فإنما توجه هذه التربية الحاضرة كل عنايتها لتصل الفرد في سلك

الجماعة وتشذب من ذاتيته مخافة أن يتنافر إبداع نظام الاجتماع . وتلك تربية نعمة تسلب المرء أكبر نعم الحياة . فهي تسلبه قوة الجسم إذ تحبسه بين الجدران مع القواعد والسيدات ، وتسلبه ملكة التقدير إذ تجعله لا يرى بعينه ولا يسمع بأذنه وإنما يرى بعين المحيطين به ويسمع بأذنهم . وتسلبه دقة النظر في الأمور إذ تأخذ الجماعة عليه وقته ولا تدع له منه إلا بمقدار يسمح له بتكوين رأى سطحي عن الأشياء يكفي ليسر به الجماعات وليكون به رقيقاً محبواً لظرفه ولكياسته ولتفاقه .

هذا الفرد المصقول يفنى في الجمعية ويعيش لها على خلاف رجل الطبيعة الذي يعيش لنفسه . ومتى عاش الإنسان للجمعية وخضع لنظاماتها انعدمت ذاتيته وحلت شخصية نسبية مكانها . وهذه الشخصية النسبية تذهب بالفرد إلى الاعتقاد بعدم وجوده كفرد وبتمام ارتباطه بالجمعية التي هو جزء منها .

ذلك تعس لا تعس بعده . أتريد دليلاً لروسو على ذلك ، لقد بلغ من أثر هذه التربية في النفوس أن أصبحت الوطنية كبرى الفضائل الإنسانية وصارت الذاتية القوية كريمة عند الناس فأطلقوا عليها أسماء الأثرة وحب الذات واعتبروها من شر النفاض . ثم صرت تراهم يتغنون بأحاديث الذين هانت عليهم نفوسهم في سبيل الجماعة أياً كان نوع هذا الهوان فيتغنون بحديث القدموني پداريت تقدم إلى عضوية مجلس الثلاثمائة ففشل فعاد فرحاً بفشله مطمئناً أن كان في وطنه إسبرطة ثلاثمائة رجل خير منه . وبحديث إسبرطية خرجت تنتظر أخبار معركة لها خمسة أبناء بين المحاربين فيها . ولما عاد بعض الجند سألته وهي ترتعد ، فأخبرها أن أبناءها الخمسة قتلوا . فصاحت به : ما عن هذا سألتك أيها العبد الزنيم ! فلما علمت بأن النصر تم لقومها طارت إلى المعبد تشكر الآلهة .

هذا النوع من التربية هو عند روسو إغراق في تقديس الجماعة على حساب الفرد بما يخالف سنة الطبيعة ، وإنما تقضى الطبيعة بتربية الإنسان ليكون رجلاً لا ليكون رومانياً ولا فرنسياً ولا مصرياً كما تقضى بأن لا يعلم صناعة خاصة . بذلك تراه إذا صار رجلاً صار صالحاً لكل مركز يضعه الحظ فيه . « وأحسننا يومئذ لخير الحياة وشرها احتمالاً هو عندى أحسننا تربية وخيرنا مكاناً » .

فإما أن يكون غرض التربية الأسمى تكوين الإنسان لحسن احتمال الحياة فذلك ما يقره أهل هذا الجيل الحاضر . . . ولقد انتشرت الفكرة بعد ما كتبها

روسو وصرت تقرأها في كل كتب التربية كأنها بعض بديهيات الموضوع . وهي لم تكن غريبة في عصر روسو لكنها كانت ظريفة يتناقلها الخاصة . حكّت مدام دبناي في مذكراتها أنها زارت المسيو لينان (Linant) مهذب ابنها ومعها المسيو دكلو (Duclos) . وقد ناقش دكلو المعلم في أمر تربية الطفل وقال له : علمه قليلاً من اللاتينية ولا تعلمه اليونانية أبداً فليس فيها له أى فائدة . ونحن لا نريد به أن يكون إنجليزياً أو رومانياً أو مصرياً أو يونانياً أو إسبرطياً وإنما نريد به أن يكون رجلاً صالحاً لكل شيء .

وأما رغبة روسو عن أن تغرس التربية في نفس الطفل حب وطنه فلا تعدو فكرة الاشتراكيين . وهي فكرة لم تتحقق بعد . وقد لا تتحقق أبداً ولو تمت على الأرض كلمة الاشتراكية إلا أن نصل التربية من توسيع أفق نظر الناس جميعاً حتى يصبح العالم كله وطناً لهم .

ولم يك روسو مؤمناً بهذه الفكرة . فإن ما كتبه في التربية قبل (أميل) وبعده ينقضها وينفيها . ولعل ما رأينا من مظاهر هيام سان پرى بسويسرا في رواية الهلويز ما يدلنا على مبلغ عشق روسو لوطنه . كذلك جاء في مقال الانسيكلوبيديا عن الاقتصاد السياسي ما يأتي : « إذا ربي الأطفال جميعاً في أحضان المساواة وأشربوا احترام قوانين الحكومة والقواعد العامة . وأحيطوا بأمثال وأشياء لا تنفك تناجيهم باسم الأم الحنون التي تغدوهم ، ولا نفتأ تحدثهم عما تحمله لهم في حناياها من الحب وما ينالونه منها من خير لا يقدر ، وما يجب عليهم لها في مقابل ذلك كله ، إذن لرأيهم وقد أدركوا كيف يحبون بعضهم بعضاً محبة الأخ لأخيه ، وكيف يقفون بإرادتهم عندما تريده الجماعة » . وهو أكثر قوة عند كلامه عن هذا الشأن من شئون التربية في خطابه عن حكومة بولونيا . فقد قال فيه : « يجب أن تطيع التربية النفوس في قالب الصورة الوطنية وأن توجه الأفكار والأذواق وجهة تجعلها وطنية بالميل وبالشهوة وبالضرورة . ولذلك يجب أن يفتح الطفل عينه أول ما يفتحها على وطنه ، ثم لا يرى شيئاً غيره إلى أن يموت . وكل جمهوري صادق يرضع محبة وطنه مع لبن أمه ويولع لذلك بمحبة الشرع والحرية . وهذا الحب هو قوام حياته . فإذا انفرد أصبح صفرأ . وإذا لم يبق له وطن لم يبق له وجود فإن لم يمت بعد ذلك فهو شر من الميت » .

إذن فرأى روسو هو ضرورة توجيه التربية وجهة وطنية صادقة ، وأن لا أحد للغلو في هذا السبيل . ذلك رأيه قبل كتاب التربية ورأيه بعده . لذلك نرانا في حل من القول بأن الرأي الذى أوردته في كتاب التربية لم يكن إلا رأياً عارضاً ربما كان سببه سوء استقبال كتابه عن المناظر في مدينة جنيف .

ونحن نعتقد ذلك لأن روسو كان وطنياً صميماً . وهو لم يولع في حياته بشيء ولعه بكل ما في سويسرا . فكانت مناظرها وحكومتها وبساطة أهلها ونوع عيشهم أمثالا عليا في نظره لما يجب أن يكون . ألا تراه بعد ارتداده عن البروتستانتية إلى الكاثلكة وبعد عيشه السنين الطوال مع مدام دفارانس وبعد إقامته في باريس لم يلبث أن فكر في استرداد حق مدينته في جنيف حتى رجع إلى دين قومه وبقي عليه بقية حياته ودافع عنه خير دفاع ؟ فكيف به يتزع إلى الطعن على الوطنية إلا أن يكون ذلك نزعة عارضة سرعان ما زالت بزوال سببها العارض هو الآخر .

لذلك كان عجبياً أن يطعن في كتاب التربية على التربية الوطنية ، وأعجب منه أن يدافع عن رأيه العارض بكل قوته . وما نود له أن يكون سوء استقبال كتابه عن المناظر في جنيف هو سبب ثورته . وإنما نعتذر عنه بأنه أراد أن يبنى التربية على قواعد الطبيعة والطبيعة لا وطن لها . والقارئ في حل من تقدير قيمة هذا العذر . فأما نحن فتريد قبل الانتقال من هذه النقطة للخوض فيما رسمه روسو طريقاً

للتربية أن ندلى برأينا وأن نشير إلى خطأ هذا الرأي العارض وأن نقول بوجوب إرضاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . فإنما التربية طبع صورة حياة المجموع في نفس الفرد على خير ما يضمن سعادة المجموع والفرد معاً . ومن باطل الغرور توهم قيامها بما سوى ذلك . وعليه فما دام في العالم أمم مختلفة متنافسة فيجب على أهل كل أمة أن يدافعوا عن حدودها وأن يضحوا في هذا الدفاع بكل ما عندهم . ولا يتأتى ذلك إلا إذا هم أحبوا بلادهم أكثر من حبهم أنفسهم . . . وتلك هي الوطنية . قد يقول بعضهم إن هذا الخلاف وتلك المنافسة ضرور يجب محوها من العالم .

ولكن على رسلكم أيها القائلون . إنكم ترجعون إلى النظريات القديمة التي ترى للمطلق وجوداً في الواقع وتقرر قواعد الخير والشر والحق والباطل وتقصدون بما تقولون إلى طبع النفس الطفلة الخالية من كل معنى بطابع هذه المعاني . ولكن هذه النظريات وتلك المعاني المطلقة دخلت اليوم في حكم الخيال الشعري يرتكن عليه

أمل الإنسانية في طموحها إلى الأمام ولا يركن إليه علم يستمد وجوده من الواقع .
ويجب أن تكون التربية علماً واقعياً بعيداً عن صور الخيال والوهم . وأفكار الإخاء
العام والدولية الهادمة للحدود والعالم كوطن لكل بني الإنسان لا تزال في حيز الأمل
نرجو أن نحققها . لكننا لا نستطيع أن نمنع عن الناشئ العلم بما هو حاصل وبوجود
الأمم وتنافسها .

إنا نكتب ما نكتب الآن والألم يحز في نفوسنا وكلنا الأسف أن خلقنا في
عصر تمس كله الأثرة والظلم . ولكننا يجب أن نواجه الواقع إذا أردنا التأثير فيه .
يجب أن نعلم أن التربية التي ننشئ أبناءنا عليها ليست هي كل شيء في تكوين
حياتهم . إنما هي حلقة من حلقات لا عدد لها متصلة كلها متشابكة بعضها ببعض ،
مجموعها هو مجموع عوامل حياة الاجتماع الإنساني . ويجب أن تكون هذه الحلقة
متسقة الجوانب مع غيرها من الحلقات حتى تثمر وإلا كانت وهماً في الوجود لا
أثر له .

أتريد على ذلك دليلاً . ها هم أولاء الاشتراكيون أنفقوا جهوداً طائلة في
سبيل هدم الحدود بين عمال العالم ليكونوا جميعاً أمة واحدة ، فما لبثت الحرب
أن استعرت في سنة ١٩١٤ حتى نزلوا عن فكرتهم وحتى كرسوا جهودهم للدفاع
عن أوطانهم . ذلك بأن فكرتهم لم تكن متسقة مع صورة الوجود وإن كانت
فكرة ملايين عدة من رجال العالم . فكيف يمكن إذن أن تضعها قاعدة للتربية
ولا تخشى إفلاسها .

ليست التربية هي الأساس الأول لتطور العالم وسيره نحو الكمال ، إنما
ذلك الأساس الأول هو مجهود العقول الناضجة الذي يوجه الجماعة الإنسانية في
سبيل من التطور البطيء يدفعها إلى غاية من الكمال أو النقص ليس في مقدور علم
الإنسان وهو على ما لا يزال عليه من ضعف وعجز أن يتكهن بها . وهذا التطور
البطيء لا ينتقل بالإنسانية خطوة إلى ما بعدها إلا أن تكون مرتبطة بها ارتباط الحاضر
بالماضى وارتباط المستقبل بهما جميعاً . ولا نزال نرى بعيداً ذلك اليوم الذي تندك
فيه حدود الأمم وتمترج فيه الأجناس واللغات وتتحد العقائد والمصالح . وما دام
ذلك باقياً ويمكن أن يثير نزاعاً وحرباً فسيبقى التعصب كميناً في النفس الإنسانية ،
والوطنية ليست إلا عقيدة وإيماناً تحتمل التعصب له .

لذلك كله رجع روسو عن رأيه الذى دافع عنه فى كتابه التربية وعاد إلى وجوب إرضاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . ولا يقصد روسو ولا نقصد نحن من ذلك إلى أن تقصر التربية همها على تكوين العقيدة الوطنية فى نفس الناشئ . بل يجب أن تقيم فى نفسه إلى جانب الاستعداد التام للحياة التى يعيشها معنى سامياً مما يجب أن يسود بين الناس من الإيمان بالإنسانية وبحقوق الإخاء بين بنى آدم وبضرورة التسامح والتعاون والتضامن بين الأمم كما يجب أن تنمى فى نفس الطفل صفات الرجولة والشهامة والاعتماد على النفس وعدم الاعتداء بمعونة الغير ولا الاستكانة لحماية الجمعية « فليس العيش كما قال روسو أن نتنفس ونحن رقود ولكن العيش أن نعمل وأن نستعمل كل أعضائنا وقوانا وحواسنا وكل ما يجعلنا نشعر بأننا نعيش . وليس أطول الناس عمراً أكثرهم فى السنين عدداً بل أطولهم عمراً أشدهم للحياة إدراكاً وأكثرهم بالحياة شعوراً وإحساساً » . . لكن تضامن بنى الوطن الواحد مقدم على تضامن الأمم المختلفة كما أن التضامن بين أفراد البيت الواحد مقدم على التضامن بين مجموع أهل المدينة . فإذا احتكت أمتان وجب أن ينتصر بنو كل أمة لها مهما كلفهم هذا الانتصار من تضحية .

ذلك رأينا يشترك فيه قلبنا وعقلنا وهو عندنا وحى الطبيعة وإلهام الحياة .

* * *

الآن نتنقل لنرى ما رسمه روسو طريقاً للتربية .

كنا نتوقع أن تتجه عناية روسو رسول المساواة ونصير الضعفاء والفقراء إلى تربية سواد الشعب الذى كان مهملأ فى ذلك العصر فى فرنسا إخماله اليوم فى مصر . وكنا ننتظر منه أن يبين الوسيلة لتعميم التربية بما يسمح لجميع الأطفال بحظ منها يؤهلهم لمكافحة الحياة وللعيش مع الجماعة عيشاً مدنياً كريماً . وكنا نود لو نرى المدينة الفاضلة مشيدة عنده على أساس من تربية المجموع تربية طيبة . لكننا مع كثير من الأسف نرى كتاب روسو عن التربية خلواً من هذا كله . بل نراه يقرر أن الفقراء والضعفاء فى غير حاجة إلى التربية لأن مركزهم فى الحياة يكرههم على احتمال العيش الذى هم فيه .

ولعل ما ذكره روسو فى اعترافاته من أنه كتب (أميل) إجابة لطلب أم فاضلة قديرة على التفكير هو سبب هذا التناقض المغيب بين مركزه كمصلح ديمقراطى

وبين ما ذكره في كتابه . فإن هذه الأم الفاضلة هي لا شك إحدى هاتيك النبيلات والجميلات ممن كان يعيش في كنفهن ويخطب ودهن ويرجو رضاهن . كما أن ما أخذ نفسه به من الطعن على الكبراء والأشراف مع التقرب منهم والتزلف إليهم كان له كذلك أثر في اختياره غير قليل . ولو أنه كتب رسالة عرض فيها لتربية الشعب لما عنيت جميلة من النبلاء ولا عنى عظيم من الأشراف بقرائه . وللنبيلات وللأشراف وحدهم كتب روسو من يوم علا نجمه . ومنهم وحدهم كان يتقرب ويهن وحدهم كان يولع .

وليته كتب كتابه لطبقة الأشراف جميلة . كلا بل كان هذا المشرذ ابن الشعب كان أرستقراطياً أكثر من الأرستقراطيين . فرأى أن التربية الصحيحة لا تتأني إلا بترع الطفل من أهله وربطه مع مربيه برباط ضيق فلا يفترقان حتى يبلغ الطفل (أميل) أشده وحتى يصبح رجلاً وحتى يتزوج ويولد له ولد .

وقد اختار روسو الطفل الذي أراد أن يعالج تربيته نبيلًا غنياً ولد في طقس معتدل ونشأ قوياً صحيحاً . وهو لم يقم فعلاً بتربية أحد أبناء النبلاء في ذلك العصر لأن المربي في نظره يجب أن يكون شاباً أعزب يعرف واجبات الرجولة ويستطيع أن يلهمها الطفل من غير أن يعلمه إياها .

وكتاب التربية يتناقض في هذا الاختيار للطفل والمربي وهذا الارتباط بينهما مع مقال الاقتصاد السياسي ورسالة حكومة بولونيا . فقد كان روسو فيهما يرى وجوب تربية الأطفال جميعاً معاً من غير تمييز بين أبناء الأشراف وأبناء سواد الشعب . وكان يرى ألا يبقى المعلمون مع تلاميذهم زمناً طويلاً . وكان يرى أن تتولى الحكومة أمور التربية والتعليم . لكنه في هذين المكتوبين كان يعرض للتربية عرضاً لا قصداً ومن غير تفكير فيما تحدثه آراءه فيها عند الطبقات الممتازة من أثر . لذلك كان أقرب إلى الحق وأبعد عن التكلف .

على أنه كان متفق الرأي في كتبه جميعاً على ضرورة فصل الناشئة عن الجماعة بل عن العائلة . وهو في هذا منضى مع نفسه إذ كان يرى الجماعة قد وصلت إلى الدرك الأسفل من الفساد والانحطاط . وللمثل في التربية أثر كبير بل له كل الأثر . فإذا ترك الأطفال وسط الجماعة أخذوا بعاداتها وأخلاقها وعقائدها وصاروا مثلها ومنها وانحطوا انحطاطها ونزلوا إلى الدرك الذي نزلت إليه .

ولروسو حق فيما يقول بعد الذى نعه على جمعية عصره من فساد وتدهور . لكن رأيه مع ذلك لم يسلم من أكثر من اعتراض وجيه . فأنت مهما فصلت الناشئة عن الجماعة وعن الأسرة فإنك لن تمحو فيها أثر الوراثة ولا أثر الاجتماع . وإذا صحت ملاحظة دارون من أن الجين الإنسانى يمر فى أثناء تكوينه بالتطورات الجنينية للخلائق التى تسلسل منها الإنسان فإن الطفل يمر من أول نشأته إلى حين تمام تكوينه بالأدوار التى مرت بها الجماعة الإنسانية خلال قرون الماضى الطويلة ليصل حتماً آخر الأمر إلى مشابهة الجماعة التى هو منها ولو اقتصرنا المشابهة على فضائل هذه الجماعة . أما الظن بتكوين مخلوق جديد ليس بينه وبين جماعته اتصال قوهم لا يمكن تحقيقه .

وكيف يتحقق والمرى ليس إلا فرداً من الجماعة . ولم يفكر روسو فى أن يفرد فناه فى مثل وحدة حى بن يقظان ، بل ترك للمرى أن يسير وتلميذه بين مناظر الاجتماع وأهله ، وأشرك هؤلاء الأهل - على ما سنرى - فى أطوار التربية المختلفة ، وسمح لتلميذه بقراءة بعض الكتب . فهذا كله كاف وفوق الكفاية لطبع صورة المجموع فى نفس الطفل وفى ذهن الناشئ وفى عقل الفتى ، وكاف ليعده عن مثال رجل الطبيعة الذى يريده روسو . وكل ما فيه أنه يضمن إلى حد ما تكوين رجل لم تدنسه النقائص لأنه لم يلامسها ، ولكنه لا يضمن حماية هذا الرجل بعد أن يترك حراً ليختلط بالجماعة من الارتكاس فى هذه النقائص . وربما كنا أميل للأخذ فى هذا الباب برأى قاسم أمين إذ يرى أن رياضة النفس على مقاومة النقائص تقوى الإرادة وتحمى من الزلة أكثر مما يحمى تجنبها والحذر منها . فقد تقرب النقائص منا من غير علمنا فلا تقوى على محاربتها لعدم تعودنا هذه المحاربة . قال : « فى ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذى حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً مدافعاً ، كذلك الحال فى جهاد النفس . لا نجد ثبات الجنان إلا عند الرجل الذى عرض نفسه لاستهواء الشهوات وخذائع اللذات ، فإذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه ، وتلك هى الفضيلة الحقيقية ، خلافاً للرجل الذى احتجب عن جواذب الشهوات ، فإنه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها إلا قليلاً ، وإذا سلم فى نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها » .

ونزع الطفل من عائلته فيه ، فضلاً عن ذلك ، عيب حرمان الطفل من أرق معاني الحياة التي لا توجد إلا في عواطف الأبوة والأمومة والبنوة . هذه العواطف القوية السامية الدائمة النضرة والشباب حتى في أقسى القلوب وأجفها . والأثر المباشر الذي يترتب على حرمان الطفل من هذه المعاني هو شعوره بالحنو واعتياده شيئاً من غلظة الكبد مع التستر بظاهر من رقة الشعور وقوة الإحساس ابتغاء نوال عطف من الناس يعوض عليه العطف الطبيعي الذي فقده . وروسو نفسه مثل حي للطفل اليتيم الأبوبين . فما من أحد شعر بعطف الأمومة وحنان الأبوة ليرضى طرح أبنائه في ملجأ اللقطاء . وما من أحد شعر بهما ثم يرضى هذا العيش المزدوج عيش النفاق الدائم الذي عاشه روسو طول حياته . ولكن روسو لم يكن ليشعر بهذا ولم يكن يتصوره ، وقد أبدع له القدر أن يشعر بأنه خير الناس وأطيهم ليخفف بذلك عنده من ألم الشعور بصغره وحقارته . وبسر نبوغه هذا الشعور عنده . فلم يقدر مع ذلك مبلغ ما يحرم منه تلميذه بنزعه من أهله .

حذ أفلاطون وتلاميذه الشيوعية وانتشرت تعاليمهم في جزر الإغريق . ومن نتائج الشيوعية إلغاء الزواج والعائلة ، فرد أرسطو بكلمة نوردها هنا رداً على فكرة لا فرد التي نزع إليها روسو قال : « إذا وضعت عدة نقط من الشهد في إناء واسع ممتلئ ماء ضاع طعمها الشهي . وكذلك فإذا ألغيت العائلة ضاع ذلك المعنى الرقيق الذي يجعل لأسماء الأب والأخ إعزازاً خاصاً ، إذ يصبح ولا محل له ، وحل عدم الاهتمام المطلق محل المحبة العائلية . وهؤلاء الشيوعيون يكثرون من الماء المضاف إلى شهدهم فيضيعون منه كل طعم ومعنى » وهذا الأفراد الذي يريده روسو ينتج مثل تلك النتيجة . وكثيراً ما رأينا شباناً تشردهم الأقدار عن أهلهم وعشيرتهم فإذا شبوا بعد ذلك وكبروا رأيت العلاقة بينهم وبين أهلهم علاقة ضعيفة يستبقها الواجب الاجتماعي من غير أن يكون فيها للعاطفة أو القلب أو الشعور أي أثر .

وجه إلى فكرة نزع الطفل من أهله اعتراض ثالث ليس أقل وجاهة من سابقه . ذلك أن تربية الإنسان تستمر طول حياته . ولأطفال عامة وللأبناء خاصة أثر كبير في حياة الكبار والأهل . فهم يبعثون إلى قطوب المشيب ابتسامة الصغر ويحيون في القلب الذي جف وقسا عواطف رقيقة تجعل الحياة أكثر لذة وعذوبة .

ثم هم مركز دائرة عواطف الأسرة التى هم فيها . فهم يجمعون بين قلوب أهل هذه الأسرة بالطف جامعة تقرها الطبيعة وتدعو إليها . ويكفيك أن ترى بضع أطفال معاً يتضحكون ومن حولهم أمهاتهم وآباؤهم وأقرباؤهم ينظرون إليهم بعيون كلها الحنان والمحبة والعطف ويتبادلون فيما بينهم مثل هذه النظرات وينسون خلال ذلك مصالح الحياة التى كانوا يقتتلون من ساعة مضت بسببها . وهم فى أثناء وجودهم مع الأطفال يرفعون دائماً عن مقارفة النقائص كبراً عن أن يراهم الصغار فى صغائرهم وحرصاً على تقديم المثل الطيب للناشئة التى يريدونها مثال الكمال . فهذه العواطف الطيبة وهذه التربية المتبادلة بين الجيل المتدرك إلى الماضى والجيل المتدرج إلى المستقبل لا تكون إذا أخذ بنظرية روسو وأفرد الطفل يتيماً من أهله وأسلم إلى شاب مهما كان من راحة عقله فهو لا يشعر فى حنايا قلبه بعشر معشار ما يشعر به أهل الطفل نحوه . على أن المعلم أو المربي لن ينتزع الطفل من أهله قبل انقضاء زمن الطفولة حينما تكفل المرأة وليدها وتحضنه ، وقد كان المتبع بين أهل الطائفة التى كتب روسو كتابه لها ألا تعنى الأمهات بالأبناء بل يسلمنهم للمراضع وللخدم لتبقى السيدة فى قصفها وترفها ورفاهها . فحمل روسو على هذه العادة حملة شديدة ألجأت السيدات لإرضاع أطفالهن . وقد غلن فى ذلك حتى كن يرضعنهم فى مقاصير مسارح التمثيل ما بين فصل من الرواية وفصل آخر .

ولعل أبداع فصول كتاب التربية هو الفصل الأول الذى يختص بملاحظة الطفولة . فقد عنى روسو فيه بنقد المتبع وبتقرير ما يلزم عناية دقيقة . وظاهر سلفاً أن ما يلزم هو أن يترك الطفل حراً كما أبدعه الخالق حراً . ولكن حكمتنا المدنية قضت مع كثير من الأسف أن « يولد الإنسان عبداً وأن يموت عبداً . فهو يوم يولد يخاط فى القمط ويوم يموت تقفل عليه أخشاب النعش وهو بين هذين اليومين مقيد بأنظمتنا وإن ظهر بالمظهر الإنسانى » .

وليس من شأن القمط وما إليه من الأربطة إلا أن يعيق جرى الدم وأن يضعف الطفل ويمنعه من النمو ويغير كيانه . وهذا كله يؤثر تأثيراً مباشراً على طبائع الطفل وأخلاقه ، ولو أنه ترك وشأنه وترك له من حرية الجسم ما يشجعه على الحركة لنما نموا طبيعياً صحيحاً معقولاً ولنمت غرائزه الطيبة مع نمو جسمه ثم لما احتاج إلى طيب مدى حياته .

وروسو لا يحب الطب ويزعم أنه مظهر من مظاهر المدنية كالعلوم والفنون
وكالفلسفة وأنه لذلك قد أفسد على الناس تصورهم للحياة شر إفساد : « ولو أنك
أردت الناس ذوى الشهامة فابحث عنهم فى الأماكن التى لا يقشاهم الأطباء وحيث
يجهل الناس آثار الأمراض فلا يفكرون فى الموت . فقد جبل الإنسان على احتمال
الألم صابراً وعلى الموت مطمئناً لكنهم الأطباء بأوامرهم والفلاسفة بقواعدهم
والقسيسون بدعوتهم هم الذين يستدلون قلبه ويفسدون عليه مبادئه .

« فليكن تلميذى إذن فى غنى عن كل هؤلاء الناس وإلا رفضته . فما أريد
أن يفسد على أحد عملى وإنما أريد أن أرى تلميذى وحدى أو لا يكون لى أى شأن
فى أمره . وقد نصح الحكيم Locke لك بعد ما أمضى شطراً من عمره فى دراسة الطب
ألا يعطى الطفل دواء على سبيل الحيلة ولا لما قد يطرأ على صحته من انحراف
خفيف . »

وما كان أغنى الأطفال عن كل دواء لو أن أمهاتهم عنين بهم العناية الواجبة
ولم يتركهم للخدم والمراضع يفسد الأولون ملكاتهم الخلقية كما تفسد الأخيرات
صحتهم واستعدادهم الطبيعى . وليت هاتيك الأمهات حين فرارهن من أقدس
وأحب عليهن ألقين تبعته على من يكون فى حلولهن محلهن الخطر الأقل فاخترن
المراضع وعنين من غذائهن ورياضتهن وحالهن بما تجب العناية به . بل هن يتركن
كل ذلك للمصادفات ويتركن الطفل للظئر تفعل به ما تشاء . وأنى لامرأة تغدو
غير وليدها أن تسيل فى روحه البريئة عواطف الأمومة الرقيقة مع لبنها المشتري .
أم أتى لامرأة أن تجد مع غير وليدها صبر الأم وحنانها . فإذا لاحظت كذلك أن
هاتيك المراضع الأجيرات هن من طبقة أدخل الإهمال أو الظلم أو فساد النظام
أو ما شئت فسمه الضغن والحفيظة إلى نفسها ومنع عليها سبيل سمو النفس الذى
يجب لكل من تربي طفلاً تسنى لك أن تقدر مبلغ الفساد الذى تحاط به نفس الطفل
من يوم يولد .

ولم يدر بخلد روسو حين وضع كتابه أنه سينتج من الأثر ما يجعل طائفة من
النبلأ تقلع عن عاداتها . فعنى عناية خاصة بما للظئر وعليها . واستطرد فى ذلك
بإسهاب وإطالة . ولا عجب فإنما لهذه الطائفة دون سواها كان يكتب . لكن هذه
الطائفة انقرضت بانتشار الديمقراطية وأصبح نبلاء عصرنا هم أصحاب المال . وليس

من شأننا أن ننصح لهم فمالهم خير ناصح ما دام للمال الحكم والسلطان وما دام كل شيء بالمال يشتري حتى الذمم والضماير .

على أن واجب الأم في التربية ليس أكبر من واجب الأب . فهما شريكان في احتمال التبعة كما أنهما شريكان في المتاع بالنتيجة . ولقد عبر روسو عن ذلك بحرارة وتألّم دفع بعض النقاد إلى القول بأنه اذكر جرمه القديم حين ألقي بأبنائه الخمس تباعاً في ملجأ اللقطاء ، ورأى نفسه في منحدر العمر وسط صحراء المدينة المجذبة في نظره وحيداً منفرداً كالشجرة الجرداء سقطت أوراقها وتهشمت فروعها وبقي الجذع قائماً يلقي العاصفة بكل قوتها وكل قسوتها . قال : « كل أب يطعم أطفاله لا يقوم إلا بثلاث واجبه . ذلك بأنه مدين بالرجال لجنسه ، وبالرجال الاجتماعيين للجماعة ، وبالرعايا للحكومة ، وكل أب يستطيع أداء هذا الدين ثم لا يفعل فهو أثم ، وهو أكبر إثماً إذا أهمل متقوصاً . ومن لم يطق أداء واجب الأبوة فحرام عليه أن يكون أباً . ولن يعفى أب من إطعام أطفاله وتربيتهم فقر أو عمل أو جاه . وإني لنذير كل ذى فؤاد يهمل أباً من واجبات الأبوة المقدسة أنه سيسكب على خطيئته طوال الدهر دموعاً مرة ليس إلى العزاء عنها سبيل » .

* * *

والآن فما هي القواعد التي يجب أن تسير عليها الأم وأن يتبعها الأب في معاملة أبنائه أول نشأتهم ؟ لعل القارئ يذكر ما أشرنا إليه عند تحليل الهلويز من ضرورة إقناع الأطفال بأنهم أطفال وأنهم لذلك في حاجة ماسة لكل من حولهم حتى من الخدم والتابعين . ثم لعله يذكر أيضاً ما أشار إليه روسو في روايته من ضرورة التزام الأطفال الطاعة لما يؤمرون به من غير مناقشة ولا شرح ، وأن تكون طاعتهم عن رغبة ورضا أكثر منها عن رهبة ومذلة . وأن يتركوا أحراراً في اتصالهم بالأشياء المحيطة بهم واستفسارهم إياها واستنتاجهم لأنفسهم منها . وعدم التدخل في ذلك ولو قصد تعديله مهما بلغ في الخطأ على أمل أن يردمهم استنتاجهم الشخصي عن خطئهم فيكون أكبر عظة وأبلغ في نفوسهم أثراً .

ويجب أن يتمتع الأطفال بهذه الحرية ألا يحرموا منها إلا عند خشية الخطر

أو الأذى العظيم وألا يعوقها عائق سلبي ولا إيجابي . فكما لا يصح أن يمنع الطفل عن الحركة أو عن الاقتراب من الأشياء وامتحانها بالحس ومعرفة ما يحيط به كذلك لا يجوز أن يدفع بالطفل في سبيل حركته لأكثر مما تمكنه قواه . أفرايت هاتيك الأمهات والمراضع يجهدن أنفسهن ويجهدن الطفل بغية تعويده المشي أملا أن يسرع به ذلك إلى القدرة عليه . هن إنما يضعن عقبات في طريقه وكثيراً ما يجلبن عليه التلف ، وهن بلا شك يعقن تقدمه إلى السير بنفسه . ولو أنهن تركنه وشأنه يعالج الحركة ويعتمد على الأشياء المحيطة به ويسعى بنفسه لتقليد الكبار في السير لكان في تقليده أكثر إتقاناً ولما عاق نمو أعضائه ولعملت الطبيعة لخيره أكثر ألف مرة مما تعمله أمه أو ظئره التي لا تستطيع بمقاومتها الطبيعة أو إرهاقها إياها إلا أن تفسد ما كان صالحاً .

وذلك هو الشأن أيضاً في أمر التكلم . فإن الحرص على أن يسرع الأولاد إلى النطق يحجن عليهم ويؤخرهم أكثر مما يقدمهم فيه . فإذا هم بدءوا النطق ظلوا يستعملون العبارات السقيمة إلى ما بعد الخامسة أو السادسة . والعلة في ذلك عند روسو (أن أطفال المدن الذين يربون في غرفة ويبقون طول الوقت تحت جناح معلمتهم ليسوا في حاجة لأكثر من تأتأة بسيطة كي يفهمهم المحيطون بهم . فهم لا يكادون يحركون شفاههم حتى يعنى من حولهم بالاستماع لهم . . أما في الريف فالأمر مختلف . ذلك بأن الريفية ليست على مقربة من ولدها دائماً . فهو مضطر أن يقول ما يريد مفسراً وبصوت مرتفع حتى تستطيع سماعه) . فالخير إذن أن يتركوا بادئ الأمر ينقلون من الألفاظ ما سهل عليهم نقله ومتى حلا لهم نقله ثم أن يعاملوا بعد ذلك معاملة عادية صرفة لا مبالغة فيها لهم أو عليهم .

وهذا هو ما يسميه روسو التربية السلبية التي يجب اتباعها مع الطفل في السنين الأولى من حياته . فلا يجوز أن يلحق شيئاً ولا أن يلقي إليه بشيء مطلقاً . بل هو يترك للأشياء يعالجها وتعاجله . وهل خطر الحياة إلا معالجة الأشياء والتغلب عليها . فاعتياد الطفل ذلك من نعومة أظفاره وإمعانه فيه حسب تكوينه الذاتي ضمن بترية إرادته ، ضمن باستظهار القوى والملكات الخاصة الكمية فيه . (فإن لكل فرد يوم يولد - وهذا ما قاله روسو في هلويز الجديدة - فضلاً عن تركيب الجنس العام ميولاً خاصة توجه نبوغه وتعين خلقه) وليس عمل التربية أن نغير هذه الميول

أو نحورها فذلك ليس في مقدورنا وإنما بالتربية نكوها ونكملها . ولما كانت الميول الأصلية طيبة بطبعها فإن هيناً أن نصل بها إلى غاية حسنة ما دمنا نوجهها توجيهاً حسناً . أما إن نحن أخذنا في التربية بوسائل العسف وأردنا أن نكره كل الأفراد - وبين ملكاتهم ما بينها من عظيم الاختلاف - على السير في طريق واحدة والتكون على شكل واحد فلن يكون من وراء ذلك إلا اضطراب ملكات الجميع اضطراباً يعدمها ويجنى على النبوغ وينزل بكل النفوس إلى درك الحقارة . وذلك هو العكس مما يجب أن يكون .

وقد غلا روسو عند تعريفه التربية السلبية غلوً كاد يجعلها مستحيلة التحقق في الواقع فقال : يجب أن تكون التربية الأولى تربية سلبية وليست هذه التربية أن يعلم الطفل الفضيلة أو الحق ، ولكن أن يحمي قلبه من الرذيلة وعقله من الباطل . ولو أنك استطعت ألا تصنع شيئاً وألا تدع شيئاً يصنع حول تلميذك وكفاك أن سرت به سليماً معافى قوياً حتى إذا به في الثانية عشرة من عمره ولا يكاد يميز اليد اليمنى من اليد اليسرى إذن لتفتحت عيون بصيرته للحق من أول دروسك ولما عاقت عادة أو عقيدة ملقنة عنايتك عن أن تبلغ غايتها . ثم إنك لتراه بعد ذلك أحكم الناس وترى أن بدأك تربيته بألا تصنع شيئاً قط أدى إلى معجزة من معجزات التربية . . فلما صودر كتابه ورد على المصادرة بخطابه البديع للمسيو بومون رئيس أساقفة باريس قال : « والتربية السلبية هي التربية التي ترمى إلى كمال الأعضاء - وهي أدوات علمنا - قبل أن يصل إلينا العلم عن طريقها . والتي نهوئنا إلى العرفان برياضة حواسنا ، وليست التربية السلبية من تافه الأغراض ، فإنها تعد الطفل لتمثل كل ما يصل به إلى الحق حينما يكون في مقدوره عرفانه وإلى الجميل متى استطاع أن يحبه . »

وقد وفق روسو في وجوب تطبيق هذه التربية السلبية تطبيقاً دقيقاً سواء فيما يتعلق بفتح عيون الطفل للمعلومات وفيما يتعلق بتقويم خلقه . وإنك لتجد في كتابه من هذا التدقيق الشيء الكثير : فلا تلق على تلميذك أى نوع من الدروس اللفظية إذ يجب أن يفيد دروسه من التجارب . ولا توقع عليه أى عقوبة لأنه لا يدرك بعد الخطأ . ولا تطالبه أن يستسيحك عفواً فهو لا يتصور إهانتك . وما دام لا يعرف أى مقياس خلقى لأعماله فهو لا يستطيع أن يأتي سيئة خلقية تستحق الجزاء أو التوبيخ .

على أن هذه التربية السلبية وغايتها كمال الأعضاء ورياضة الحس والوصول بالطفل قوياً سليماً إلى سن التبصر والعقل تقتضى رياضته رياضة بدنية بمقدار عظيم ، وهذا ما عنى به روسو ولم يهمله لحظة خلال كتابه . فهو فى كل وقت يسير بالطفل فى الأحراش والثلوج والحدائق ويصعد الجبال ويهبط به البطون ويعوده المشقات ولا يفتأ يقدم لناظره من بدائع مناظر الطبيعة ما يخلق عنده عشقها والولع بها . . وهو فى هذه وفى غيرها مما يقدمه لتلميذه من وسائل التربية إنما يقدم للناشئة مثلاً من تربيته هو . وهو فى أميل كما كان فى الهلويز إنما يقص حكاية نفسه ويروى وقائع حياته مثبِتاً أن خير ظروف الحياة الإنسانية هى تلك الظروف التى مر هو بها والتى يأنف أكثر الناس أن يشهدوها فضلاً عن قبول . اجتيازها ، ولكنها على الرغم من ذلك كونت بل خلقت جان جاك . وجان جاك صورة النبوغ وصورة الفضيلة . لذلك كانت بالرغم من كل الناس خير الظروف لتخريج خير الناس .

هذه الحركات الكثيرة وهذا الطواف والتجوال وهذه المشاهد التى تقع تحت نظر الطفل تقتضى منه احتكاكاً بها قد يحتاج إلى صدور أمر المربي له باجتنابها أو بعدم مزاولتها ، كما قد تستدعى من الطفل حين عجزه عن استفسارها أن يستفسر عنها مربيه فبم تقضى التربية السلبية فى الحالين ؟

ما نحسب القارئ فى شك من الجواب . فإن الطاعة المطلقة أساس من أسس التربية الأخلاقية . ولا يجوز للمربي أن يجعل أمره للطفل موضع مناقشة وأخذ ورد لأن الطفل لا يستطيع أن يقدر سلسلة الأسباب والنتائج التى تدور فى نفس المربي ولا يستطيع إذا عرضت عليه أن يفهمها . فإذا هو عود الأخذ والرد فيما لا يفهم تعود الجدل السفطائى غير المنتج وقدر لنفسه فوق مكانتها وحسب نفسه مساوياً لمربيه فداخله الغرور وفسدت فيه خير الملكات . وليس يقصد بهذا ألا يقدم المربي سبباً للأمر الذى يصدره . ولكنه يكون أكثر دقة إذا هو قدم السبب قبل أن يسأل عنه . فإذا سئل اكفى بما قدم حتى يفهم الطفل أنه لا يطيع طاعة عمياء وأنه إنما يخضع لضرورات الطبيعة التى يخضع لها مربيه .

وذلك هو الشأن فيما إذا استفسر عن شيء لم يفهمه . فمتى قدم له تفسير ما يسأل عنه وجب أن يكون ذلك التفسير فوق المناقشة حتى لا يكون فى شك من

الأسباب التي تقدم له وحتى لا يصل بكثرة الأخذ والرد إلى تعود السفسة الكاذبة .
ولعلنا نرى بعد ذلك مبلغ ما في تعريف روسو للتربية السلبية من إغراق .
فلن نقف طلعة الأطفال عند حد ولن يصل طفل إلى الثانية عشرة ولا يميز بين
يمينى يديه ويسراهما إلا أن يكون أبله بالغاً في البله . وقد رأينا أن الطفل الذي يريد
روسو تلميذاً له ليس بالأبله ولا بالسخيف .

على أن روسو قد ابتعد عن تعريفه للتربية السلبية بمحض اختياره . فقد رأى
أن يرتب الأشياء حول تلميذه وأن يهيئ الظروف على طريقة تضمن وصول الطفل
إلى معلومات خاصة يستحيل عليه أن يصل إليها إذا ترك ونفسه . ورأى ذلك من أول
ما عهد إليه بالطفل يربيه فقال :

« إذا عهد إلى سياسة طفل كالذى وصفت - أى طفل صحيح قوى غنى -
إذن لقلت في نفسى : إن الطفل لا يتناضل الأشخاص ولكنه يتناضل الأشياء .
فهو سرعان ما يقف بالتجربة عند احترام كل من كان أكبر منه سناً أو أكثر منه
قوة . أما الأشياء فلا تستطيع أن تدفع عن نفسها . لذلك كانت الفكرة الأولى
التي يجب عرضها عليه هي فكرة الملكية أكثر منها فكرة الحرية . ولتكوين
هذه الفكرة عنده يجب أن يكون له شيء ملكه . وليس يجدى في ذلك أن
تذكر له ملابسه وفرشه ولعبه . فهو وإن تصرف في هذه الأشياء لا يعرف
كيف ولا لم كانت له . فإذا أنت قلت له إنها أعطيت إليه فإنك لن تقدمه شيئاً
فإن العطاء يقتضى الامتلاك . وإذن فقد كان ثمت ملك سابق على ملكه . ونحن
إنما نريد أن نفسر له أساس الملك . كل ذلك فضلاً عن أن العطاء والهبة أنواع
من الاتفاق ، والطفل لم يفهم بعد معنى الاتفاق . وإني أرجو القراء أن يلاحظوا
في هذا المثل وفي مائة ألف من مثله كيف تملأ روس الأطفال بالفاظ لا معنى لها
عندهم ثم يقال بعد ذلك إننا أحسننا تعليمهم خير إحسان .

« يجب أن نرجع إذن إلى أصل الملك لنرى كيف ظهرت فكرته الأولى . فالطفل
يكون لنفسه وهو يعيش في الريف فكرة عن أعمال المزارع مما لا يحتاج إلا إلى
النظر والوقت . وله حظ منهما جميعاً . ومن طبائع الناس في كل الأعمار وفي
سنه هو بنوع خاص أن يتزعموا إلى الاختراع والتقليد والإنتاج والإبانة عن مظاهر
القوة والنشاط . فما يكاد طفلنا يرى حرث الحديقة وبذرها وظهورها ونمو نباتها

حتى يصبوا إلى القيام بمثل هذه الأعمال .

« وما كنت وفقاً للمبادئ السابق بيانها لا مرض لبغيته ، بل على العكس من ذلك أحبها وأشاركه في ذوقه وأعمل معه لا لمسرته ولكن لمسرة نفسه ، وذلك ما يجب على الأقل أن يعتقدوه هو . ومن ثم أصبح صبيه في عمله . فأحرث له الأرض في انتظار أن تقوى أذرعه ويضع هو يده عليها بأن يفرس فيها حبات القول . وليس من شك في أن هذا الملك أقدس وأدعى للاحترام من تملك نونيس بلبا لأمریکا الوسطى باسم ملك الأسبان حينما أقام علمه على شواطئ البحر الجنوبي . ثم نجىء كل يوم نروى القول ونراه ينمو ونحن أشد ما نكون ابتهاجاً ، وأزيد أنا ذلك الابتهاج بقولى له ذلك ملكك . فإذا شرحت له معنى الملك جعلته يشعر بأنه ما نتج إلا بإفناقه وقته وعمله وجهده ومجموع نفسه وإن في تلك الأرض شيئاً من وجوده يستطيع أن يطالب به كل من سواه كما يستطيع أن يتزع يده من يد أى شخص يريد أن يمسك بها قهراً عنه .

« ولقد جاء يوماً إلى عمله ومعه جردل الماء . لكن المنظر كان أليماً . فقد اقتلعت كل شجيرات القول وقلبت الأرض ظهراً لبطن وأصبح المكان ولا يمكن تمييزه . فبهت أميل وصاح : ماذا حل بكدى وعملى ونتاج عنايتى وعرق جينى ؟ من ذا الذى غصب ملكى وأخذ فولى . وتحرك هذا القلب الشاب أن أسالت فيه أول مشاعر الظلم مراتها الأليمة ، فهمل دمه وملأ الجو توجعه وصياحه فشاركته في ألمه وغضبه وبحث واستقصيت حتى علمت أن البستاني هو الذى أتى الفعل وأتيت به .

« لكننا دخلنا في موضوع جديد . فإن البستاني لما علم بالشكوى كان أكثر منا شكاية وأرفع منا صوتاً وقال : أنتم إذن يا سادتي الذين أفسدتم على عملى . لقد غرست في هذا المكان بطيخاً ملطياً استودعت بذوره واعتبرتها كنزاً ثميناً وانتظرت أن أقدم لكم منه عند نضجه ما يسركم وهأنتم أولاء أتلفتم بطيخى بعد ما بددتموه بغرسكم فولكم المنحوس ولم يبق إلى الاستعاضة عن البطيخ سبيل . ألا لقد ألحقتم بى ضرراً بالغاً وحرمت أنفسكم من التلذذ بأكل البطيخ .

جان جاك

« معذرة أيها المسكين روير . فقد أودعت هنا كدك وعملك ثم ارتكبنا

نحن خطيئة إفساد عملك عليك . على أنا سنجلب إليك بذراً ملطياً آخر ثم لن نعمل في الأرض قبل أن نعلم ما إذا لم يكن أحد قد عمل فيها من قبل .

روبير

« هونوا عليكم أيها السادة فلم يبق بعد أرض خالية . وإني إنما أعمل الآن في الأرض التي استصلحتها أي وسواى يعمل ما أعمل . وكل هذه الأراضي التي ترون قد وضعت عليها الأيدي من زمن بعيد .

أميل

« خبرني يا مسيو روبير . كثيراً ما تلتف إذن بذور البطيخ .

روبير

« عفواً أيها الصغير . فليس يغلب عندنا حضور سادة صغار طائشين مثلك ، ولا يمس أحد حديقة جاره بل كل يحترم عمل غيره حتى يكون آمناً على عمل نفسه .

أميل

« أما أنا فلا حديقة لى .

روبير

« ليس ذلك من شأنى . وإذا أنت أتلقت حديقتي فلن أتركك بعد تنتزه فيها : فإني كما ترى لا أريد أن يضيع عملى هباء :

جان جاك

« ألا نستطيع أن نعرض على الطيب روبير اتفاقاً . فليعط لصديق الصغير ولى جنباً من الحديقة نزرعه على أن يكون له نصفه الثمرة .

روبير

« إني أعطيه لكم بلا شرط . ولكن اذكروا أنى أحرث فولكم إذا أتم تعرضتم لبطيخى » .

فهذه الوسيلة التي يلجأ إليها روسو لإدخال فكرة الملك إلى نفس تلميذه أبعد ما يكون عن تلك التربية السلبية التي عرفها . فإذا عرفت أنها وسيلة تكررت

في كتاب التربية وأن روسو كثيراً ما رتب الأشخاص والأشياء والحوادث ليدخل إلى نفس تلميذه فكرة معينة تبين لك أنه شعر تمام الشعور باستحالة مرور الطفل بسنى الحياة الأولى من غير أن تترك في نفسه أثراً . فأراد أن يكيف هذا الأثر على ما يريد .

وقد أخذ الكتاب ذلك على روسو : وأخذوا عليه أنه تعارض مع نفسه فترك التربية السلبية جانباً ولجأ إلى وسيلة لا يضمن أحد حسن أثرها كما لا يضمن أحد إمكان تطبيقها مهما جاهد ليتبع تعاليم روسو . وهي فضلاً عن هذا سهل أن يكشفها الطفل . وفي ذلك من الخطر ما فيه .

قال فيلمن في عرض كلامه عن كتاب التربية : « هنا يظهر وجه الخطأ الأكبر في طريقة المؤلف . ومرجع هذا الخطأ وجود الصناعة في تلك التربية الطبيعية وتوزيع الأدوار ووضع الأشخاص في الأمكنة الثلاثة بهم . وإذا كان روسو لا يسمح لتلميذه بمطالعة الكتب لأنها كاذبة فما باله يرتب حوله كل هذه المناظر وهي في صناعتها أكثر من الكتب كذباً . أفلا يعلم أن للأطفال سليقة حادة يكشفون بها عما يصنع لهم من صفائر الحيل ويدركون بها مبلغ الجد معهم . فإذا كشفوا هذه الحيل فقل على التربية السلام . وروسو لا يفتأ يفتأ يفتأ هذا الخطر في طريقته » . وما نشك في وجاهة هذا النقد فلن تكون تربية رجل الطبيعة على أساس من الصناعة والترتيف . ثم إنك لن تستطيع أن تجعل الطفل في وسط الصناعة والتجارب أبداً وتضمن تأثر الطفل بهما من غير أن يصل إلى كشفهما .

على أن لروسو بعض العذر عن خطئه . فقد كان مشغولاً مدة كتابة أميل بالتذكير في إقامة قاعدة الخلق على أساس التلاؤم مع الأشياء المحيطة . لكنه وقد كان يرى أبعاد ما خلفته المدنية وأوجده الترف من صناعة لم يكن في حل أن يحبط الطفل بمظاهر هذه الصناعة كما أنه - وقد كان يسعى إلى تكوين رجل الطبيعة وهو في غرضه يتعارض مع رجل ذلك العصر - كان من الخطأ أن يستعين بهذا الوسط الذي يطعن عليه وكان واجباً عليه أن يكتفي بالمحيطات الطبيعية الصرفة لتكوين غلامه .

والعجب أن يقرر روسو هذه النظرية ثم يبتعد في التطبيق عنها . والحق أنه كما قال فيلمن ينقض الطرائق المعروفة بأحسن مما يثبت به صلاحية طريقته

فتراه يقول : « ليكن الطفل تحت حكم الأشياء دون سواها . فلا تأمره بشيء ولا تعلمه أكثر من أنه ضعيف وإنك قوى من غير أن تقص عليه أى درس كلامى . ولا توقع عليه جزاء فهو لا يفهم الجزاء ما دام حسه الخلقى لم يتكون بعد . ولن يصح أن يقع الجزاء بالطفل على أنه جزاء وإنما يجب أن يحل به كآثمة نتيجة طبيعية لعمله » ثم يقول « إنما القمين أن تتم إرادته هو من لا يحتاج لتمامها أن يضيف أذرع غيره إلى أذرع . . والرجل الصادق الحرية لا يريد إلا ما يقدر عليه . ذلك مبدئى الأساسى وأريد تطبيقه على الطفولة » .

أفيكون هذا التطبيق بمثل ما تقدم من الحيلة ؟ إذن فأين البساطة الطبيعية وأين حب الحقيقة وأين الواقع الصحيح .

لكن روسو أحرص على مبدأ التربية السلبية عند تطبيقه فى الميدان الأخلاقى . فهو لا يريد أن يلقى على الطفل شيئاً باسم الواجب ولا أن يعلمه شيئاً باسم الحق ولا أن يتدخل معه فى استنتاجه فضرر كل تدخل أكثر من نفعه ، لكنه يرى واجباً أن يطيع الطفل إرادة أبيه أو مربيه وأن يخضع لها خضوعه لأى قوة من قوى الطبيعة القاهرة . وإلا : « فمتى استطاع الإنسان إثبات ما لا يسوغ له عمله دخل إليه حب إخفاء ذلك العمل . ومتى أمكن لصالح أن يصل منا إلى وعد وكلمة أمكن لصالح أكبر منه أن يدفعنا لنقض كلمتنا وعدم البر بوعدنا ، ومن ثم تدخل المفاصد إلى النفس . ولو أننا أبعدناها عن مظنة السوء لبقيت فى طهارتها ونقاها . ولا يكون ذلك إلا بتركها حرة تعالج الحياة وتحتمل ثمرات علاجها من خير وشر لنعلم أن لضرورة الطبيعية هى وحدها التى تقيّد حرية الفرد وأنها لا تخيد حريته فى سبيل . . . شخصية الحق » .

دلت على - ترى - بترك للطفل من الحرية ما يسمح له بتربية نفسه حسب الوسط المحيط به . وأن روسو قد رأى لذلك وجوب ترتيب هذا الوسط بطريقة تضمن حسن النتيجة فى تربية ناعم الظفر . ولكن الترك المطلق كما قدمنا محال ، وهو إن أمكن فى السنين الأولى - إلى الثالثة أو إلى الرابعة من العمر - فهو بعد ذلك غير ممكن . لذلك وجب أن يتقدم المعلم إلى الطفل شيئاً فشيئاً لا بتعليمه الأشياء ولكن بإلقائه لها وإظهار الدهشة لعدم معرفته إياها بنفسه . على أن هذا الإلقاات يجب أن يكون للأشياء المحيطة بالطفل لا بالأشياء التى لا يقدرها إلا توهماً . فلا تقل له

إن الأرض مستديرة ولا إن قطرها يبلغ طوله كذا وكذا من الكيلومترات ولا إن المسافة بين الأرض والشمس مداها كذا كيلو متر مما يشتت ذهنه ويغشى على بصيرته . بل جاهد لتجعله دائم الانتباه إلى كل ما يمس مباشرة . وإنك إذاً لواجده قديراً على التصور والتذكر وعلى التعقل أيضاً . وهذا هو نظام الطبيعة » .

والأشياء التي تمس تلميذ روسو هي المناظر الطبيعية والمزارع والقرى المنشأة بينها . وفي هذه المحيطات موضع لعلم واسع يلاحظه التلميذ بنفسه . فاختلاف سعة المزارع والمنازل والأماكن يمكن الطفل من تفهم المقاييس والأحجام ، ومختلف المساحات وما إليها فما تلهمه مبادئ الهندسة . والقرى المختلفة المشتتة التي يغشاها في أثناء نزهه ورياضاته وما بينها من بحيرات وغدران وجبال تفتح عينه للجغرافيا المحلية . وأخلاق الناس وعاداتهم وأقاصيصهم تدله على تاريخهم . وهو متى استطاع أن يفهم ذلك كله من الأشياء المحيطة به مباشرة تاق بطبعه إلى فهم أشباهها ونظائرها فسهلت دلالاته وهان إرشاده .

* * *

فإذا سار الطفل في سبيل التطور على هذا النحو حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فانفتحت ذهنه واتسع عرفانه أصبح قصره في دائرة التربية السلبية غير ممكن وجب البدء في تعليمه . وذلك لأنه في هذه السن دونه في كل أدوار العمر يملك من القوة ما يزيد على رغائبه وشهوته . فيينا يعجز الطفل ويستصرخ لضعف جهده ، وبينما ينوء الرجل بحمل مطالبه ورغائبه ومطالب من يعول ورغائهم ، إذا الفتى الذي قارب استكمال قوته البدنية وفتح عين بصيرته للوجود لا يزال قليل الرغائب لأن شهوته الجنسية لما ينفجر ينبوعها ولأن اطراد نموه يقاوم كل ما يستوجب الضعف ، ولأن ما أفاده من العلم بالمحيطات به بلغ حداً صار معه في حاجة لتبويبه وترتيبه وتعيمه إلى ما يشابهه مما لا يقع تحت حسه . وهو لا يقدر على القيام بذلك بنفسه . وإلا لكان واجباً أن يبدأ كل فرد من أول الطريق الذي قطعه الإنسانية . وهو من غير شك أعجز من أن يلم وحده بمجموع ما كدسه الماضي من معلومات توضح وتقصص بالزمان . فإذا وقف في منتصف الطريق عجز عن ملابسة الجمعية ولم يفده عجزه شيئاً . ومن الواضح أن تربية هذه نتيجتها هي تربية خائبة .

ولعل القارئ يذكر ما وجه لروسو من قارص النقد حين نشر خطابه عن

العلوم والفنون داعياً للرجعة إلى الطبيعة . فقد طعن عليه بورد وستانسلاس وغيرهما يومئذ بأنه يقف في طريق التقدم ويدعو إلى الخراب . واضطر هو فعدل عن فكرته المتطرفة إلى وجوب استبقاء المكاتب والمتاحف من غير أن تكون سبباً للترف ولما يجره من الفساد . وما كان روسو ليقع من جديد في خطئه القديم . فجعل يوضح لأهل عصره السبيل لمحو الفساد مع الاستمرار في طريق التقدم العزيز على العلماء والكتاب جميعاً .

ووسيلة ذلك في تربية تلميذك الذى تعدى الثانية عشرة من عمره أن تلهمه الحقائق المحسوسة من غير أن تعلمه إياها . وذلك « بأن تنبه بقطته إلى مظاهر الطبيعة حتى تثير عنده الشغف بها ، على أنك إذا شئت أن يبقى شغفه فلا تقدم له ما يكفيه ويقنعه بل قرب منه المسائل ودع حلها له . فلا يجوز أن يعلم شيئاً لأنك قلته له وإنما يجب أن يعلمه لأنه فهمه من تلقاء نفسه . وإذن فهو لا يتعلم العلم ولكنه يبده » . . على أن من الواجب إرشاده بعض الشيء ، وبعض الشيء فقط ، وبمقدار لا يشعر هو به . فإن أخطأ فدعه يخطئ ولا تسارع إلى إصلاح خطئه . بل انتظر مطمئناً حتى يتاح له أن يصحح ما أخطأ فيه أو فرب له فرصة غير محسوسة تجعله يحس بخطئه . ولو أنه لم يخطئ أبداً لما أيقن تعلماً « وهنا يرنب روسو من صور الطبيعة ومظاهرها ومن الصور المسرحية التى مر بك مثلها فى قصة البستاني ما يبين به طريقة الإلهام وإثارة الشغف واستبقائه .

إلى هذه السن لم يقرأ أميل كتاباً إلا كتاب الطبيعة « الذى لا يكذب أبداً » ، وهو فى هذا يختلف عن روسو الذى كان ولا يزال ، فى السادسة من عمره يقضى الليل كله يقرأ هو وأبوه روايات كانت أمه قد خلفتها قبل وفاتها . إلا أن روسو كان شديد لرغبة عن الكتب ، لأنه كان يعتقد أنها مثلاً للبيئة الاجتماعية كافيّاً ليفسد على الأستاذ كل تعليمه وبخاصة إذا قرأها الطفل ولما تتكون عنده ملكة الحكم ولما يفد من المعارف ما يسمح له بتقدير ما فيها من صحيح وباطل . لكنه إذ بلغ الثانية أو الثالثة عشرة من عمره كان فى سن تسمح له بالتدبر بعض الشيء ولذا وجب التسامح معه فى قراءة بعض الكتب على شريطة أن تكون فى متناول علمه وأن يستطيع الحكم عليها حكماً صحيحاً .

فأما الكتب التى تتعدى قدرته فى الحكم فضرورة لأنها تفسد نظام تربيته

وتخضعه لأفكار لم يحصلها هو بنفسه وتجعله لذلك العوبة في يد سواه وتدفع به إلى التقليد وإلى مجازاة الوسط ، من غير تفكير في تقدير ما يجارى غيره فيه اعتماداً على أن هذا الغير أكثر منه مقدرة وأوفى علماً . والطفل إذا اتجه إلى هذه الناحية فقد ذاتيته وضاع كل مجهود أنفق في تكوينه وتربيته وصار مغرساً صالحاً لكل مفسد الاجتماع .

وخير الكتب التي يقدر عليها الأطفال في هذه السن حكايات لافونتين . وليس من شك في أن هذه الأقاصيص التي تنسب إلى إيزوب اليوناني والتي نقلها لافونتين إلى الفرنسية هي ببساطتها وبسوقها على لسان الحيوانات وبالأفكار والحكم التي تحتويها خير ما يصلح لرياضة عقل الطفل لجاذبيتها ولطرافها ولجمالها . وطفل روسو ومن كان على شاكلته يستطيعون لا شك حسن تقديرها والحكم عليها . لكن أقاصيص لافونتين لا تكفي وحدها غذاء لنفس الطفل المحتاجة إلى الغذاء العقلي . ولما كان حتماً أن يكون الطفل لنفسه فكرة عن العالم وعن الإنسانية بعد ما كونه فكرة عن ركن العالم المحيط به وعن أصول وفروع أصحابه ومعارفه فقد أباح له روسو مطالعة كتب التاريخ مفضلاً منها ما كان مقصوداً على تراجم الأفراد . وحكمة ذلك أن تواريخ الأمم لا تعنى من فترات حياة الأمم إلا بأوقات الحروب والثورات والمذابح وما إليها من ظاهرات تدهور الإنسانية . فإن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها . والرجوع إلى هذه التواريخ المولعة بالبحث عن المجد والإشادة باسم الذين وصلوا إلى ذروته مفسد للروح لما يدفعه إليها من حب الدسيمة والخديعة والكذب والنفاق .

وإننا لنؤمن بهذه الملاحظة ونعتقد أن العصور التاريخية التي يعلو فيها نجم السياسيين هي أنعس عصور الإنسانية وأحظها . ولو أنك رجعت إلى أبداع ساعة في تاريخ فرنسا ساعة الثورة الفرنسية ووقفت عندها وقفة الحكم وحللت ما كان فيها إذن لما رأيت إلا كلمات جوفاء وإلا مظالم مكدسة بعضها فوق بعض وإلا السياسيين ذوي المطامع الذاتية يدوسون باسم أرقى المبادئ وأسمائها رقاب البشر يظلمون باسم العدل ويقتلون باسم السلام العام وينهبون باسم ثروة الدولة ويرتكبون كل فاحشة ومنكر باسم الفضيلة الطاهرة ويهشون الأمة النائرة تطلب الحرية لقبول ظلم نابليون وطغيانه .

بل ما لنا نرجع للثورة وهذه حرب العالم الكبرى ولما يكذ ينتهى العالم منها .
 أرايت ما بلغته الأمم خلافا من جلال وما باهت به بعدها من فخار ومجد .
 أسمعت كلمة إمبراطور الألمان أول الحرب (ويل للمغلوب) وهى كلمة لا نظير
 لها إلا فى نذر الآلهة . أسمعت خطب لويد جورج وكلمنسو وما تستفز به حمية
 الشعوب وتستدر به عبرات الإنسانية . وهل تذكر خطب ما بعد الهدنة مترددة
 بين الوعد والوعيد وصوت البشير وصيحة النذير . إن كنت تذكر كل هذا
 فاجلس ساعة إلى نفسك واحتلب عصارته جميعاً بعد أن تمرره بمصفاة عقلك ثم
 قل لى هل ترى فيه من خير يعدل ما فى سطر من كتب روسو أو قصيدة من
 شكسبير أو من كوميديا دانت الإلهية أو من تواليف جيت وشلر . ولا غرابة فى ذلك .
 فالإنسانية إنما تنتج طيب آثارها وهى فى حال من طسائية البال وسكينة النفس
 وفى شئ من الرغد ونعمة العيش . فإذا هى استطير عقلها طاش صوابها وتحكمت
 فيها شهواتها الحيوانية فأصبحت الخطب زئيراً وصهيلاً والتفكيرات طفرات واندفاعات
 والعواطف سلاط وحشية والرحمات رياء ونفاقاً . وما كان لأحد أن يطالب الإنسانية
 بغير هذا . فإن للوسط على النتيجة أكبر الأثر . فإذا تلبد الجو بدخان البارود
 فاحتجبت الشمس واختفى القمر وتسمم النسيم وقلبت الأرض غالبها سافها وغطى
 الجذب أكثر بقاعها ربض الإنسان وسط ذلك كله وجلا مضطرباً متحزراً للوثبة
 كله عيون ترى مواضع الخطر وأذان تسمع هزات النسيم وكان على هذه الحال
 ولا فرق بينه وبين النمر أو الثعلب أحيط به وسط أدغاله وأحراشه .

كتب التاريخ التى تقص خبر هذه الفترات من حياة الإنسانية ليست إذن
 من طبقات الكتب التى تقدم للناشئة حين تربيتها . لكن الناشئة ليست فى غنى عن
 كتب التاريخ . لذلك فضل روسو أن تقدم إليهم كتب التراجم . فإن المؤرخ
 يعنى بتتبع من يترجمه فى كل فترة حتى فى الفترات التى يود المترجم الخفية فيها
 والاستتار . وهو لا يترك له فرصة ولا صورة إلا عرضها أمام عين الناظر الناقد .
 وهو أشد عناية بتعريف الناس إياه حينما يظن هو أنه اختفى عن كل عين .

لعل القارئ يذكر ولع روسو بكتاب بلوتارك عن حياة العظماء . وهو
 هذا الولع الذى أدى به ليمدح فكرة قراءة التراجم أكبر المدح ويشابع الكاتب
 الفرنسى الكبير مونتني فى محبته إياه وفى التشجيع على قراءته .

على أن كتب التاريخ العام وكتب التراجم لا تقتصر على ذكر الوقائع ووصف حالات النفس . بل كثير ما يوجهها حكم المؤلف على الحوادث وجهة خاصة . وما كان لمؤرخ مهما بلغ من حياده ومهما نظر إلى الحوادث بعين مطمئنة لا تعرف الفرع ولا النشوة أن يمحو ذاتيته من كتابته : فإن للوقائع التي يسردها وللرجال الذين لعبوا الأدوار المهمة فيها وظروف الاجتماع التي أحاطت بها ولتصارييف الأقدار التي وجهتها منطقاً خاصاً . ولم يبلغ العلم الاجتماعى بعد من الدقة مبلغاً يجعلنا نؤمن بالقوانين التي تصرف الحوادث التاريخية والاجتماعية إيماننا بقانون الجاذبية . فكل مؤرخ وكل مترجم له رأيه في منطق الحوادث وله حكمه على كل رجل من رجال التاريخ . لذلك كان الناشئ في تعرضه لهذه الكتب عرضة لأن يتأثر بحكم غيره . وهو وإن بلغ سنّاً تسمح له بحسن التقدير فإنه لا يزال في درجة من معرفة العالم أدنى من درجة هؤلاء المؤرخين والمترجمين . وتأثره برأيهم هو ما يحشاه روسو وإن كان لا يجد من الالتجاء إليهم مفرّاً .

يلتجئ الطفل إلى كتب التاريخ والتراجم ليعرف سيرة الإنسانية والسبل التي سلكها الناس فيها من قبل وكيف قدروا شأنها وأثروا فيها وتأثروا بحوادثها . . ذلك كل شأنه من قراءته ليس يعنى بتمحيص الحوادث لبضع يوماً مؤلفاً في التاريخ ولا يفحص صور الأمم لينشئ نظريات في الاجتماع ، لأنه في الحالين يكون معيناً على انتشار العلوم والفنون وانتشارهما فساد وشر عند روسو . وليس يعنى من قراءته بما قد تجره من الفائدة المادية لأنه على ما رأى القارئ بادئ الأمر شاب غنى من أسرة عربية في الأرستقراطية غير محتاج ليجعل من دراسته صناعة ترد عليه من وسائل العيش ما ترده الفأس على الفلاح والكبير على الحداد والمنشار على النجار . هذه الدراسة أو بالأحرى هذا الاطلاع على بعض الكتب الخاصة وتفهمها والحكم عليها إنما يراد به المزيد من حسن تكوينه ليصبح أكثر مقدرة على ما أعدته له أرستقراطيته من التربع على عرش الحياة بما يجب له من العظمة المحسنة ومن التحكم المحبوب .

لكن الغنى عرض والأرستقراطية مظهر والتحكم المحبوب ليس مضمون البقاء . وأميل لم يصل من قراءاته ليفيد عرض الحياة . لذلك رأى روسو أن يعلمه صناعة يدوية حتى إذا قعد بين الزمن كانت له معيناً على الزمن . ثم إن ما وقر

فى نفس أميل من أن السعى أساس التملك وأن البطالة ليس لها جنى إلا العلل والأمراض وأن رياضة البدن أمر جم الفائدة كل ذلك يجعله يرى فى الصناعة اليدوية ما يسلى به وقته وما يزيد به فى رياضاته وما يشعره المساواة مع الفقراء فى كدهم كما تشعره تربيته الراقية المساواة مع الأرستقراطيين فى سرائهم وفى حكمهم غيرهم .

* * *

إلى هنا انتهى روسو من تربية تلميذه الأول فانهت الأجزاء الثلاثة من كتابه الضخم . وهنا وقف تلميذه عند حدود ما بين الطفولة والرجولة حين يبدأ الفرق الصحيح بين جنسى الرجل والمرأة ، فيخرج الأول من طفولته وتتغير فيه كل مظاهرها من نمومة فى الصوت وخلو فى الفؤاد وإبهام فى النظرة وخضوع واستسلام ويبقى الثانى مستمراً فى طفولته بكل مظاهرها إلى ختام حياته .

هذه اللحظة هى أدق لحظات حياة الرجل . فنحن (نولد مرتين أولاهما لنوجد والأخرى لنعيش ، أولاهما للنوع والأخرى للجنس) فإذا تفتحت فى الشاب بناييع حياة الجنس كان هذا مولده الثانى . وليس هذا المولد أقل خطورة من الأول . فإنك ترى الشاب فى إبان هذا التطور وقد تغير طبعه وكثرت اندفاعاته ولج به اضطراب النفس وصم عن سماع كل صوت يناديه للسكينة وأصبح وكأنه أسد فى نفرتة لا يعرف مرشداً ولا يقبل لغيره عليه حكماً . فلا عجب أن يكون واجب المربي فى هذا الدور من أدوار الحياة مضاعفاً وأن يكون كل ما قام به من قبل فى سبيل التربية قليلاً إلى جانب ما تقتضيه هذه اللحظة الحاسمة .

عود روسو تلميذه الطاعة فى كل أدوار حياته ، وحب إليه رياضة البدن ورياضة النفس ، وعلمه حرفة يدوية يقتل بها الوقت ويستعين بها إذا قضت الحاجة ، وقدم إليه طيب الكتب القليلة ليقراها ويحكم عليها . ولم يترك لحظة من وقته إلا شغلها بما يريد ، على ألا يحس التلميذ بهذا التحكم ، بل على أن يعتقد أنه حر مطلق الحرية بصرف وقته كما يشاء ويعمل ما يريد . فكان طبيعياً إذن ألا يفكر التلميذ فى شىء من صلات الجنسين قبل هذا المولد الثانى . وما دما قد عودناه الحكم على الأشياء وإمعان النظر فيها فإن هذه الساعة الخطيرة ستمر بهذا التلميذ من غير كبير خطر . لأن تحكم الأميال الجنسية فى الشبان

ودفعها بهم في سبيل السبل إنما سببه كثرة تفكيرهم فيها . أما إن هم وجدوا عنها منصرفاً وشغفوا بأعمال وتفكيرات أخرى فإن ساعات العماية لا تمر بهم أبداً . . لأن اتجاهات الذهن أكبر من كل شيء أثراً على حركات الجسم واندفاعاته . وما دامت هذه الاتجاهات عند تلميذ روسو بعيدة عن صلة ما بين الرجل والمرأة فإن خطر ساعة بدء الشباب يكون غير مخثنى العاقبة .

وإننا لنشارك روسو في ملاحظته هذه عن إيمان وعلم ونقطع وإياه بأن مفسد الشباب في المدن إنما سببها هذا التبرج النسائي وهذه الصور المخجلة التي تعرض لا على مسارح التمثيل فحسب ولكن في السبل والطرقات وفي حوانيت الباعة وفي الزيارات العائلية وفي الأحاديث العامة والخاصة . دعنا إلى جانب هذا من دور الدعارة وميات اللهو ومن تلك الأماكن العامة يمرح فيها أفراد من كل جنس لاهم لهم إلا إثارة كوامن الشهوات . فكيف ترجو مع ذلك أن تمر بالشباب ساعة جنون الشباب فلا يندفع وراء الرغائب الجنسية الثائرة في نفسه . بل كيف ترجو ألا يفكر الأطفال قبل العاشرة بل الثامنة من عمرهم في صلات الجنسين ، وكيف تراهم يجمعون في نفوسهم طلعة الطفولة التي تدعوهم للسؤال عن كل ما تقع عليه عيونهم . فإذا هم فهموا هذه المعاني على النحو المشوق الذي تقدم به في المدن تواردت صورها إلى أذهانهم فهاجت نفوسهم ففعلت الساعة الخطيرة ولما يكتمل لهم من توازن قوى الجسم والعقل ما يضمن سلامتهم من التورط في الزلة والارتكاس في حماة الرغبة الجنسية والتأثر بكل ما يجيء ذلك به من فساد في الطبع وضعف في النفس وانحطاط في جميع القوى .

أما في الأرياف البريئة من كل هذه المفاسد فسن بلوغ الفتيان والفتيات متأخرة عما هي عليه في المدن (وإنه ليدهشك أن ترى في قرى سويسرا الجبلية شباناً في قوة الرجال ولا يزال صوتهم حاداً وذقهم ملساء ، وفتيات كاملات التكوين لا تؤاتيهن عادات النساء . وهذا الفرق الواضح بين هؤلاء وأهل المدن إنما سببه أنهم في بساطة أخلاقهم يحفظون بخيالهم هادئاً مطمئناً فيتأخر اختار دمهم وتظل طباعهم أقل حدة) وما يصدق على قرى سويسرا يصدق على كل مكان تسود فيه البساطة وطمأنينة الخيال .

فإذا ظل التلميذ مشغولاً بالرياضاته ولعبه وقراءاته وحرفته عن التساؤل عن صلات

الجنسين وما يرتبط بها فواجب ألا ينه إلى شيء منها حتى يبق في سكينة وحتى تمر به العاصفة وهو قوى عليها يلقاها بلا خوف ولا وجل .

لكنك لن تضمن ذلك . فللأطفال مسائل يلقونها في هذا الباب عن براءة وطهارة قلب . فكيف نجيبهم عنها . أترانا نكذب أم نلزمهم السكوت أم نصارحهم بحقيقة الأمر واضحة جلية .

أما الكذب فبغض إلى نفس روسو وهو لا يقره بحال . وأما إلزام السكوت فذلك ما يميل إليه . وما دام الطفل قد اعتاد الخضوع لهذا الأمر في مواضع أخرى من تربيته فلن يراه في هذا الموضع غريباً ولن يثير عنده أى دهشة أو طلعة . على أن الأقل من الأمهات من تكفى بإلزام طفلها السكوت . بل هن على الأغلب يفاجئنهم بعبارات التشويق والرغيب كأن يقنن خم : ستعلمون ذلك فيما بعد . أو ذلك سر المتزوجين . فيبقى الطفل تتقلب طلعتة على أشواك الحيرة يود أن يعرف اليوم ما سوف يعلمه من بعد ويريد أن يقف على سر المتزوجين . فإذا لم يجد من أمه أو مربيه من يدله عليه لجأ إلى الأطفال أمثاله . وهو لن يعدم أن يجد من بينهم طائفة فاسدة الخلق تزين له من أمر هذه الأسرار التى بأبى الكبار أن يبوحوا بها ما يجعل الطفل يدمن الفكرة فيما يقوله أمثاله مزينا إياه بصور خاصة من خياله معتبراً فيه طلسماً صن أبواه بفتح كنوزه أمامه . ولو أنهما كلماه في الأمر بصراحة وببساطة كما يكلمانه في كل ما سواه فقالت له أمه حينما سألتها كيف تصنع الأطفال أن النساء يلدنهم متجشمت . في ذلك من الآلام ما يذهب أحياناً بحياتهن . وقالت له ذلك على نحو ما تقول له أى شيء آخر إذن رأيت طلعتة وقد اضمأت ثم لرأيتة وقد انصرف عن التفكير في أمر هذا مبلغه من السخف أو إن شئت فقل من القذارة والنكر .

لكن العرف يأبى ذلك ، والسبب عند فاجيه راجع إلى تفسير الأشياء الطبيعية بشيء من الحدس الدينى (فإن الطفل لا يذكر شيئاً مما أصابه ولا يذكر ما كان حتى الرابعة من عمره . لذلك خيل لآبائنا أن الآلهة أرادوا أن يبق الإنسان زمناً طويلاً جاهلاً كيف وجد في هذا العالم وألقوا على مسألة الميلاد حجاباً مقدساً ظنوا رفعه أمراً غير جائز) لكن الحجاب المقدس الذى يأبى الآباء رفعه يرتفع من أمام عين الطفل بلا حاجة لتدخل أبويه . فإن زملاء المدرسة وخلان

الطرقات وحثالة السفلة أجراً من الآباء وأسرع إلى التجديف في حق هذا السر القدسي بطريقة دينية منكرة سيئة الأثر والفعل في نفس الطفل البريء ولو أن الآباء أراحوا الحجاب على النحو الذي ذكره روسو من البساطة وعدم العناية به أكثر من أى مما سواه لانصرف الطفل عن العناية بالبحث فيه أو بسماع أقوال زملائه عنه وكان شأنه شأن من صرفته أعماله ورياضاته وما إلى ذلك من المشاغل عن المسألة في هذا الأمر ، فبلغ الحلم متوازن القوى والرغائب غير معنى بالمسألة الجنسية أكثر من عنايته بسواها مستعداً للبقاء في طهر العفاف حتى زواجه . وما أكثر ما تكسب الفضيلة بذلك (فإن الطفل الحسن المولد الذي يحتفظ إلى العشرين بطهارته هو في هذه السن أكرم الرجال وأحسنهم وأرقهم) ذلك ما يقوله روسو عن علم وتجربة لا يخشى معهما كذباً . وإنما يجهل سواه من فلاسفة العصر هذا الأمر لأنهم تربوا وشبوا في أحضان الفساد المدرسي .

* * *

إلى ذلك الوقت . إلى السادسة عشرة من سن أميل لم يلقن أميل شيئاً من قواعد الخلق ولا عنى أستاذه بتأديبه ، بل تركه للطبيعة يتأثر بمظاهرها وبفعل تلك المظاهر فيه ، وليس من شأن الطفل قبل هذه السن أن يفكر في غير نفسه ولا أن يعنى بعلاقته بمن سواه ولا أن يقدر للعواطف المختلفة . وإنما تسير به في مضطرب الوجود فطرة الاحتفاظ بالحياة في أحسن الظروف الممكنة للحياة . وهذه الفطرة هي أقوى أسس الأثرة وهي التي تجعل الموجود لا يعنى من الوجود إلا بذاته ولو ترتب على عنايته بذاته فناء الوجود .

وما يشك قارئ في أن هذا الترك إهمال معيب من جانب الأستاذ لتلميذه . فإنما الغرض من التربية تهذيب هذه الأثرة الأشعية . فإذا ترك الطفل وشأنه نمت فيه أثرته فأصبح من المتعذر التغلب عليها كما أحاط بها من مستلزماتها الغرور والكبرياء والجشع وحب الظلم وما تدعو هذه الصفات إليه من الكذب وباطل الادعاء ومن النفاق وتخليق الأقوياء ومن القسوة والفتك بالضعفاء . ويومئذ يذهب كل مجهود لاستئصال هذه الصفات أو للتغلب عليها هباء . ويومئذ يكون القسم الأهم من التربية بل التربية كلها قد ذهبت ضياعاً .

هذا اعتراض قوى يوجه إلى روسو في تركه فناء بلا تأديب حتى هذه

السن المتقدمة . لكن لروسو عليه رداً ليس أقل منه قوة . فهو يقول إن تلميذى ليس كتلاميذكم (انظر إليه فى هذه السن تر أنه لم يشعر بشيء ولم يكذب فى شيء . فهو لم يقل لأحد قبل أن يعرف معنى الحب - إننى أحبك - هو لم يعود تكلف مظهر خاص حين الدخول فى غرفة أبيه أو أمه أو معلمه المريض وهو لم يعلم فن التظاهر بالحزن حين لا حزن عنده . وهو لم يتظاهر بالبكاء لموت أحد لأنه لم يعرف بعد ما هو الموت . وإنما تترجم سكينه طباعه عن سكينه قلبه . وهو لا يهتم لأحد لأنه لا يعنى بشيء إلا بنفسه شأن الأطفال جميعاً) وقد حفظ ذلك عليه طيب طبعه كما أتاح له أن عاش عيش الطبيعة فلم يدرج أول ما درج إلى أماكن اللهو وإلى المجتمعات البراقة الكاذبة البريق وإلى كل مصنوع متكلف . ولو أنه شب كما شب غيره واعتاد التكلم بما لا يعرف وبما لا يحس به لكان أساس تربيته فاسداً ولكنت بتربيتك له على هذا النحو إنما تكيف رجل الجمعية الفاسد الدعى على حساب ابن الطبيعة الصريح الصحيح . وهذا لعمرك هو الشر المستطير .

لما يقف أميل إذن بعد على شيء من قواعد الخلق فكيف السبيل لإدخالها إلى نفسه .

قد يجب علينا قبل عرض هذه المسألة على طريقة روسو أن نسأل عن رأيه هو فى قواعد الخلق ، وقد يجب علينا قبل معرفة رأى روسو أن نسأل عما هى قواعد الخلق لذاتها . وإنا لا ندعى فى هذا الموضع إمكان مناقشة المسألة الأخلاقية التى يستغرق كل وجه من وجوهاً مطول التصنيف ولكننا نعرض منها لما نرى ضرورة التعرض له لفهم رأى روسو ونعرض له على طريق الإشارة البسيطة لا على طريقة البحث والتمحيص .

لو أنك فرضت وجوداً لحى بن يقظان أو لروبنسن كروزو لما استطعت أن تتصور لهما من قواعد الخلق إلا بمقدار ما يستطيعان معه ملاءمة الوسط الذى يعيش كل منهما فيه . فإذا كان أحدهما محاطاً بكواسر الوحش وبطقس متقلب كثير العدوان وبأرض قليلة الخصب لم يكن بد من تصور هذا الشخص قوياً نشطاً ذا ذكاء وحيلة وإبداع حتى يدفع بقوته وحيلته عاديّات الحيوان عليه ، وحتى يصل بنشاطه وإبداعه إلى استغلال الأرض على قلة خصبها ، وحتى يستعين

بإبداعه وذكائه على اختراع ما يتقى به قلب الطقوس ، فإذا وصل إلى ذلك كله فاتقى العدوان وحصل المعاش كان ما يأتيه بعد ذلك من تفكير أو تصور أو عمل ولا حكم لقاعدة من قواعد الأخلاق عليه . وإذا كان الآخر مقبلاً في جو خصب غنى خبراته معتدل الطقوس قليل العوادي من حيوان وطيور كان في غنى عن القوة وعن الحيلة وعن الإبداع . وكان غير ملوم في أن يستع من جنته بكل ما يصوره له خياله من أنواع المتاع ثم لا يكون لشيء اسمه قواعد الخلق حكم عليه .

لكن الإنسان المنفرد لم يكن ولن يكون . فإذا وجد حى وكروزو معاً وكانا متساويين قوة وحيلة وذكاء اقتسم كل نعم الحياة مع صاحبه من غير عدوان عليه لأن عدوانهما الأول أثبت لهما أن ليس لأى منهما من وراء العدوان فائدة وأن العدوان ضار بهما جميعاً . كذلك تعاون كل مع صاحبه لدفع العوادي . . فإذا حل بأحدهما الضعف جاهد صاحبه ليفيد على حسابه . فإذا تفاوتا في القوة إلى حد إذلال أحدهما للآخر لم يكن للدليل بد من أحد أمرين : إما الخضوع رجاء الحصول على ما يقيم أوده مع بعض المتاع الذى يفيض عن صاحبه . وإما الاحتماء فى الزهد واحتمال الحرمان من كل ما قد تجود به الحياة المحيطة من نعم أو مسرة ، وهذا الاحتماء من الظلم فى كنف الحرمان هو عندنا أساس التقشف والزهادة التى أصبحت فيما بعد مذهباً أخلاقياً ذا قوام وسَّع وقواعد .

ولا عجب أن يصبح الزهد مذهباً . فقد كان التفاوت وعدم المساواة فى عصور ما قبل التاريخ ، وكان الظلم ولا يزال قاعدة التعامل بين الأفراد والأمم . وإلى اليوم أخفقت كل المجهودات الكريمة التى أنفقت لمنعه أو لتخفيف وقعه . وكثيراً ما استفاد الظلم على حساب هذه المجهودات وخرج بفضلها ظافراً من كل الحروب التى أعلنها ومن الحروب القليلة التى أعلنت عليه .

غير أن التقشف لا يتفق مع طبيعة الحياة . وليس من متقشف إلا وصدف عن الحياة سواء طمع بعدها فى الخلود أو هو لوى عنها وجهه تفرزاً منها واستهزاء بها أو خضوعاً لضرورتها المتحكمة ، والتخلى عن الحياة تناقض لا تطبيقه النفوس فى معروف الحياة ، لذلك كان مذهب الرواق على بديع جماله خيالا شعرياً . أما ما هو واقع تحت نظرنا فيدلنا على أن الحياة غاية الحياة وأن ما تفسر به صورها بعد ذلك إنما هو حدس لا دليل عليه . ولتحقيق هذا الواقع يجب أن

تكون قاعدة الخلق عند رجل الجماعة كقاعدة الخلق التي فرضناها لحي بن يقظان ، ملائمة الوسط الذي يعيش الفرد فيه على طريقة تتفق مع فطرة احتفاظ الفرد بحياته ومعاينته على احتفاظ الجنس ببقائه وبتطوره وبملاءمته للوسط الذي يعيش فيه .

وهذه القاعدة أكثر تمثيلاً مع مذهب أبيقور على تعدد صوره ، وهي ما يريد به روسو قاعدة لآدابه مع شيء من الطرافة خاص به ويميز له عمن سواه .

وقد يلاحظ هنا أن هذه القاعدة هي القاعدة العامة لكل أنواع الخلائق ، فلن يحتمل الحياة موجود لا يتلاءم مع ظروف الحياة المحيطة به . ألا ترى إلى السبع والنمر على قوتها وجرأتهما كيف يهجران الأماكن التي لا تتفق طباعهما مع طبيعة العيش فيها . فما الفارق بين الإنسان وغيره إذن ؟

الفارق أن طبع الحيوان أصلب وأقسى من طبع الإنسان . الإنسان قدير على أن يتشكل بشكل الظرف الذي هو فيه . وهو قدير على ذلك عن إدراك وشعور . أما الحيوان فأقل مرونة وهو لذلك أسرع إلى الانقراض عند تغير الوسط . ومرونة الإنسان وشعوره بهذه المرونة هما أساس الخلق المكسوب القائم إلى جانب الطبع والسليقة عنده .

وقد كان من تطور حياة الإنسان أن تزايد التفاوت بين جماعته وبين أفراد كل جماعة فاقتضى ذلك نضالاً دائماً تمت الغلبة فيه للظلم أكثر الأحيان ، وباء المظلومون بنحيبتهم يتعثرون في أذيالها ويشعر كل منهم بقارص ألمها ، فتكون عندهم تبادل العطف بسبب الألم المتبادل ، وعرف كل منهم أن أخاه البائس يستحق من الإشفاق ما يشعر هو في نفسه بأنه مستحق له ، ثم حفزهم ألمهم لمعاودة الكرة وللثورة من جديد في وجه الظلم ، فاحتاجوا للقيام بثورتهم إلى التعاون والتضامن فيما بينهم وإلى الصداقة في القول والإخلاص في التضحية ، لكنهم لم يظفروا من ثورتهم الجديدة إلا بما فازوا من نضالهم القديم ، فعادوا أدراجهم واجمين ، ففكر جماعة منهم في القناعة بحظهم مكتفين بالنظر لمن دونهم وبالتألم لمن كانوا أكثر منهم مصاباً . أما الآخرون فنظروا إلى من غزوههم نظرة الحقد ثم فكروا في إزال غضبهم بأمثالهم الضعفاء الذين عجزوا بالأمس معهم عن مواجهة الأقوياء . وكذلك تجدد الظلم والعدوان وكذلك نشأت العواطف.

التي رأى القارئ ، فأقامها الناس قواعد لخلقهم في النضال اليومي الذي لا يقل عن ذلك النضال الآخر بشاعة وقسوة والذي لا يمتاز عنه إلا بأن أسنانه أدق وأحكم ، فوخزاتها أقوى وأقتل ولكن في خفية وتحت ستار الابتسام .

ولولا التفاوت ولولا النضال لما كان شيء اسمه قواعد الخلق ولا الآداب ولا الفضيلة ، بل لعاش الناس عيش أهل الجنة على ما يصفهم الواصفون .

على أن ما سنه الناس قواعد للخلق قد أخذ صوراً وأشكالاً عدة ، وكل إنسان ميال بطبيعة مزاجه وبظروف حياته وبتكوينه النفسي وبحكم البيئة إلى صورة من هذه القواعد خاصة تختلف قليلاً أو كثيراً عن الصورة التي يميل إليها سواه . وقد كان روسو ميالاً إلى نوع من الفضيلة الزاهدة في الترف مع نوع من الاعتذار عنه ونصيب من الرغبة فيه . نصيب يسمح له بالتخلص من ضرورات العيش مضمناً إلى نفسه وإلى تفكيراته وتأملاته من غير أن يذل هو له وأن يستذل لذلك من سواه من الناس . ولعله عبر عن ذلك خير تعبير في رواية الهلويز حين قال عن جولي : (ولجولي نفس وجسم يتعادلان في دقة الإحساس ، فعواطفها وأعضاؤها كلها الرقة . وهي قد خلقت لتذوق كل اللذائذ ولتعرفها . لذلك مر بها زمن طويل كانت تحب فيه الفضيلة حباً جمّاً على أنها أشهى الشهوات . وهي تنهل اليوم من هذا المتاع الأسمى ولا ترفض ما سواه من صور المتاع ما لم يتعارض معه . لكنها تسلك في المتاع باللذائذ سبيل القصد التي يسلكها من يرفضون اللذة . وفن المتاع عندها هو فن الامتناع - على ألا يكون امتناعاً أليماً يجرح الطبيعة ولا يرى فيه خالقها إلا تحية سخيفة أخرى بالازدراء والتحقير . بل امتناعاً معتدلاً موقوتاً يحفظ للعقل حكمه ويحتفظ بالسرور في حدوده ، فينبغي عنه التقزز منه والإسراف فيه ، وهي ترى أن حاجات الحس التي ليست من ضرورات الحياة يتغير طبعها إذا انقلبت عادة فينقضى العهد بها كلذة وتصبح حاجة لازمة وغلا يتقيد الإنسان به ومتاعاً يحرم نفسه منه . فسداد الرغائب ليس إذن هو وسيلة إقناعها ، بل وسيلة قتلها . لذلك تراها تجيب واحدة من عشرين من رغائبها فتجعل بذلك للرغبة المجابة قدراً وثمناً وتحفظ على نفسها قوتها ولا تفتنى بالاستهلاك لذتها .

« ولها من الامتناع غاية أشرف هي حكم نفسها وتعويد شهواتها الطاعة ورغائبها الخضوع ، وتلك سبيل طريفة للسعادة ، فإن الإنسان لا يطمئن للمتاع إلا بما

يستطيع فقده من غير ألم ، وأعجب ما يظهر لى عجيباً فى اعتدال مزاجها أنها تأخذ فى قصدها بالأسباب التى تدفع بالشهوانيين إلى تطرفهم . وهى تقول إن الحياة قصيرة حقاً ويجب لذلك أن نتمتع بها إلى غايتها وأن نتصرف فيها جميعاً بحذق كى نفيد منها أوفر حظ ممكن . ولو أن يوم نخمة أضاع علينا متاع عام لكان من أنعس صور الفلسفة أن نقاد وراء رغائبنا ناسين أننا قد نصل إلى منتهى ضعفنا قبل أن نصل إلى مدى وجودنا وأن قلبنا قد يعيته الضعف قبل أن نموت . وهؤلاء الأبيقوريون السخفاء الذين يريدون ألا تضعيع منهم فرصة يضيعون الفرص جميعاً ، وشأنهم وهم يسرفون فى الوقت ويدعون القصد فيه شأن البخيل يحل به الخراب لأنه لا يحسن التزول عن شيء يقضى الطرف بالتزول عنه . أما أنا فأخذ بنقيض هذا الرأى مع ميل للشدة فيه وميل عن التراخى أياً كان مقداره . وقد صادفتى أن وقفت دون استكمال بعض ملذات رأيتنى شغفت بها فلما عدت بعد ذلك إليها حصلت منها على ضعف المتاع ولم آل جهداً خلال ذلك كله فى أن أجعل لإرادتى الحكم على نفسى مفضلة أن أرمى بالتشبث من أن أدع لشهوائى الحكم على . »

يذكر القارئ إلى جانب هذه الصور من أنواع ملذات جولى صورة معاملتها لزوجها وأولادها وأصدقائها وأتباعها على نحو ما وصفناه فى الفصل السابق ، وتلك كلها هى قواعد الخلق التى يراها روسو . وتلك هى عنده فضائل الحياة ومفاتيح السعادة . لكن استفزاز هذه العواطف وتثبيت هذه القواعد فى نفس الناشئ لا يكون بإملائها عليه ، إذ لا بقاء لعاطفة ولا لقاعدة ولا لفكرة تملى من غير أن يكون لها أساس متين ، بل هى أسرع ما يكون للتطور والتغير لتلائم مزاج صاحبها ونزعاته النفسية ، فلا بد إذن من تركيز إحساس معين عند الناشئ تنفرع عليه العواطف والقواعد بطبعها وتؤتى ثمرها كما تنبت الفروع من الجرع ثم تؤتى أكلها نقياً سليماً ما دام الجرع قوياً صحيحاً .

والأساس المتين لهذه العواطف والقواعد هو الشفقة والكرم . والشفقة عند روسو عاطفة طبيعية لأن أساسها الألم . يكتفى أن يعرف الطفل أن أمثاله يتألمون كما يتألم وأن لهم آلاماً خاصة بهم ليعلم أنهم حقيقون بالعطف وبالرحمة ؛ فإذا تعهد الأستاذ هذا الإحساس الطبيعى فى نفس الطفل بأن عرض عليه

مواضع الإشفاق واشترك معه في مؤاساة المكلم والعطف على البائس وأبعده عما يعميت هذا الشعور عنده كان قد مهد السبيل لأرق تربية خلقية تنتظرها .

لا يرضى هذا الرأي أنصار النضال وبقاء الأصلح من فلاسفة الأخلاق . هم يقولون إن عواطف الرحمة والإشفاق عواطف مخننة تأبأها الطبيعة التي لا تعنى ببقاء الضعفاء ، وقد نصبت التفاعل بين مختلف العناصر ومختلف الذرات أساساً لنظام الوجود . وما نفضل أحد الرأيين على الآخر ونحن نعتقد أن الحياة الإنسانية هي المثل الأعلى لدوام المور والحركة . فما يصدق على بعض الأحياء قد يصدق عليها حيناً ثم لا يصدق في حين آخر . وإذا نحن سلمنا بنظرية النضال إلى منتهى مداها نفينا نظرية التعاون والتضامن ، وهي ليست أقل منها تمكناً في حياة الوجود وفتحنا باباً للظلم الفادح باسم النضال . وإذا سلمنا بنظرية الشفقة نفينا نظرية التنافس ، والتنافس حادث اجتماعي لا سبيل إلى نفيه . وكذلك ترى أن الشأن هنا كالشأن في كل الأحداث الاجتماعية ، لا تستطيع إخضاعها لقانون نظري متطرف لأنها تجمع بين دفتيها متناقض الأطراف .

على أن لروسو عذراً واضحاً في تكوين نظريته . فهو مسيحي لم يخرج منه قلبه بين البروتستانتية والكنائس ومعاشرته للمتشككة والملحد من مسيحيته ، بل بقى مؤمناً ثابت الإيمان بانيماً إياه على قواعد وحجج سيرها القارئ قريباً . والمسيحية دين الشفقة والرحمة . فطبيعي أن يؤمن روسو بها وأن يعتبرها أساساً للحياة الأخلاقية .

ثم إن حياة روسو وسيله في العيش وما مر به من بؤس واحتمله من مكروه كل ذلك لم يكن إلا ليزيده إيماناً بمبادئ المسيحية المحسنة الكريمة التي تجعل في معونة الفقير والبائس كبرى الفضائل .

وإنا ننقل هنا نص القواعد التي وضعها روسو ليسيروا عليها المعلم في تربية تلميذه الأخلاقية . . ! « ليس من شأن القلب الإنساني أن يتربع في مكان من هم أسعد منا بل في مكان من هم أحدر منا بالإشفاق والرحمة . . وأنت لا ترق لما يصيب سواك من أوصاب إلا أنك تعتقد أنك في غير منجاة منه . . والناس لا يشفقون على المصاب بمقدار مصيبته ولكن بمقدار ما يحسبونه من تألمه لتلك المصيبة » . وقد أيد روسو هذه القواعد على اعتبار أنها الواقع ، ثم شرح كيف يهيئ تلميذه

بالأمثلة المحسوسة للشعور مع الإنسانية المظلومة مقدراً أن ذلك الشعور هو أساس السعادة ثم قال : « سيلومنى لا شك أكثر من قارئ على نسيان ما عزمت عليه بادئ الرأي وما وعدت به تلميذى من سعادة دائمة . فأى سعادة وأى متاع يجده القلب الشاب حين تفتحه للحياة فى مناظر التعساء والماتنين ومشاهد الألم والبؤس . كأن معلمه التعس الذى هياه لحياة ناعمة لم يعده إلا للشقاء والألم . ذلك ما سيقال ولكنه لا يهمنى فقد آليت على نفسى أن أجعل تلميذى سعيداً لا أن أعده ليتظاهر بالسعادة » . والسعادة لا تكون إلا بمشاركة الناس فى آلامهم والعمل لتخفيف ما يعانونه منها ، أما النفوس التى تُظهر غير ما تُبطن فتتملى أفكار الانتقام على ثغرها الخداع بسمات الغدر . وهى تتقن ضحكة الاستهزاء ولا تعرف ضحكة السرور ، وتحمل فى تجاعيدها الوقاحة الظرفية والظرف الوقح . تلك النفوس لا يفتر الألم يحز فيها حتى يميتها ويفقدوها أرق المعانى الإنسانية : معنى الشعور والواجب .

الواجب ؟ أحسنى بهذه الكلمة قد عدت فكرة روسو . فهو لم يكن يعرف الواجب كثيراً . وهل ترى فى الجمعية التى يصبو هو إليها ، تلك الجمعية الساذجة التى لم تغادر بعد حدود الحياة المستوحشة ، تلك الجمعية الزاهدة فى نعم العيش لتكون بعيدة عن آلامه . تلك الجمعية الصريحة بطبيعة تكوينها والتى لا تحتاج فى الحياة إلى كبير عناء لتحصل على كل مطالب الحياة . هل ترى فى تلك الجمعية معنى حقيقياً لكلمة الواجب أو تراها جمعية تتحكم فيها الفطرة كما تتحكم فى أنواع الحيوان الأخرى ؟

لذلك كان كل معنى الواجب عند روسو هو العودة إلى هذه الجمعية العائشة على بساطة الفطرة فى أحضان الطبيعة السعيدة ينعم أفرادها جميعاً بنعمة المساواة ، ثم لا يفسدها عليهم ما يستلزمه الترف من كثرة الحاجات ومن الاشتباك بالغير اشتباكاً ينتهى بالخضوع وبالفساد . بل يبق كل منهم قليل الحاجات بعيداً عن الخضوع للغير كامل الحرية موفور السعادة .

* * *

وهنا ينتقل روسو للكلام عن التربية السياسية . وهى فى رأيه جزء من قواعد الخلق : « أما أولئك الذين يريدون أن ينظروا فى السياسة وفى الخلق منفصلين فلن يفهموا أبداً منهما » . لكن التربية السياسية تتطلب تعليماً إيجابياً ، فقد بلغ

الناس من الإمعان في الفساد حتى لو أنك تركت الناشئ يحكم عليهم بالنظر إليهم والبحث في شئونهم لانتهى به الأمر للتقزز منهم ولكرههم ، أما إن عرف أنهم في الخطيئة عن غير قصد منهم . وأنها ظروف التطور هي التي دفعت بهم إليها إذن لأخذته الشفقة من أجلهم والرأفة بحالهم . ثم لفكر في سبيل الإصلاح الواجب اتباعها للخروج بهم من شقائهم .

وسبيل الإصلاح التي يريد روسو أن يلقيها تلميذه هي تلك السبيل التي نادى هو بها من قبل في خطاب العلوم والفنون وفي خطاب التفاوت وفي خطاب المناظر . فالإنسان طيب بطبعه والمساواة حال طبيعية أفسدها الناس في جماعاتهم ثم هم لا يزالون يتشدقون باسمها . فهم يتكلمون عن المساواة أمام القانون أو المساواة في الحقوق وهي ليست إلا خيالا وهمماً . فإن الوسائل التي أعدت لصيانتها تعمل على هدمها والقوة العامة تفسد بانحيازها للقوى كل توازن أقامته الطبيعة بين الناس . والروح العامة لقوانين كل البلاد تميز القوى على الضعيف ومن يملك على من لا يملك . هذا عيب لا مفر منه ولا استثناء له » وإذ قد ترتب على التفاوت ما ترزح الإنسانية تحته من شقاء وتعس ، فلا بد من إعداد الناشئة لتخليصها من هذا الهم القتال . ولن يكون ذلك إلا إذا وجهت عواطف النشء لإقامة جماعة لا يكون لطائفة فيها امتياز على طائفة ويخضع فيها الكل للقانون على السواء ويكون حماة القانون فيها أكبر من أن تؤثر فيهم الاعتبارات الخاصة وأحرص من كل من سواهم على جعل الشرع مظهراً للإرادة العامة حتى يكون كل فرد إنما يطيع إرادة هو فيها شريك وسلطاناً هو من بين أصحابه . وبذلك يمكن أن تتحقق فكرة المساواة أمام القانون على نحو ما يريدونها متشدقو ذلك العصر .

لسنا بحاجة للدخول في تفاصيل النظام فسيكون موضع ذلك عند الكلام على كتاب العقد الاجتماعي . وإنما نقول إن وسيلة تعويد النشء على الميل إليه وملاحظة الجماعات والشعوب ، وليس من شك في أن روسو أميل إلى الشعوب والجماعات الصغيرة ، وقد رأى القارئ من ذلك الميل شيئاً غير قليل في رواية الهلويز وعرف أن سببه ما كان عند روسو من الهيام بوطنه جنيف هيماً كانت تريده المسآت والآلام قوة وتأصلاً .

إلى جانب الأسفار تحجيء قراءة كتب التاريخ وقد سبق بنا القول في شأنها

وفى رأى روسو فى كتب التاريخ وفى تراجم الأبطال بما لا يدع محلاً للعودة إليه أو للمزيد فيه .

ما أشك فى أن القارئ قد ساءل نفسه غير مرة : والمسألة الدينية ؟ الإله ، سر الوجود ، الأبدى ، إتنى لم أسمع بعد عن شىء من ذلك كله كلمة وقد سمعت أن روسو رجل مؤمن متدين مولع بدينه وبالبحث فيه . فكيف به وقد نسى تلميذه فى ظلمات الجهل من هذه الجهة وكأنى به يريد تخريجه زنديقاً ملحداً .

رويدك يا سيدى القارئ . إن روسو لا يريد أن يعرض على الطفل شيئاً ليحفظه عن ظاهر قلبه من غير أن يفهمه . ذلك بأنه يرى أن عرض الحقيقة على من لا تسمح لهم عقولهم بفهمها يحل محلها الخطأ والضلال والمسائل الفلسفية والمسألة الدينية ليست فى متناول العقول الساذجة ولا مما تستطيع عقول الأطفال دركه وتفهمه . فإذا أنت عرضت على الطفل أية فكرة عن الله رأيتَه قدس الصورة فى خياله من غير أن تقرها ملكات عقله . وخطر ذلك صريح واضح . فالطفل المقدس بخياله يصبح متعصباً تعصباً أعمى كارهاً لإخوانه بنى الإنسان الذين لا يدينون بدينه لغير سبب يفهمه . ولعمرك هل ترى فرقاً بين تعصب مسلم الآماتة ومسيحى باريس . فأيهما على الحق . ولو أن مسيحى باريس ولد عند قرن الذهب من أبوين مسلمين أو لو أن مسلم الآستانة ولد على ضفاف السين وألقيت إليهما فكرة الدين قبل أن يصل أحدهما لإدراكها أفلا ينقلب الحال فى شأن التعصب . ثم هما فى تعصبهما على الباطل جميعاً وإن كانت عقيدتهما متقاربتين تحويان من الحق مقادير متعادلة .

كذلك يقول روسو إذ يرى فى عرض مسائل الدين والفلسفة على الأطفال خطراً غير قليل . وحجته فى هذا أن عاقبة تلقين قواعد الدين للطفل أن يبقى طوال حياته طفلاً فى تعصبه لها وغضبه من أجلها ونفوره ممن لا يشاركه فيها ، أو أن ينفر من هذه القواعد متى بلغ رشاده وينفيها جميعاً لما يخالط حقها من باطل ولما تقف بجمود بعض قواعدها فى وجه الحياة وفى سبيل العلم .

وليس من شك فى أن حشد الخيال إبان الصغر بالأفكار العالية الخاصة بالروح وبخلودها وبالاختيار وبالجبور وبالله وبصفاته مما لا يستطيع الذهن له إدراكاً يجعلنا نأبى العودة لبحث هذه المسائل إبان الرجولة إذ تصبح فى نظرنا وكأنها

من خصائص الأطفال . فإذا نحن عينا ببحثها بعد ذلك واجهنا حتماً بعض تفاهات وسخائف مما كانت طفولتنا تقضى بإضافته على هذه الأفكار السامية حتى يستطيع خيالنا الغض أن يسيغها . فإما رجعنا أمام هذه التفاهات إلى حرز الإيمان والتسليم وبقينا في تعصبنا القديم ، وإما تقززنا بسبب هذه السخائف مما كنا من قبل نفر منه فنفيها . والأقلون منا هم الذين يصبرون ويصابرون لتمحيص تلك الأفكار تمحيصاً جدياً من جديد .

على أن روسو لم يسلم في هذه المسألة من اعتراضين عمليين : أولهما قائم على اعتبار العقيدة والدين قاعدة للخلق وسيلة عملية للسير في الحياة ، فهما يكبحان جماح النفس ويحولان بينها وبين النقائص لتقريرها حرمتها ولبيان ما يترتب عليها من الجزاء في الآخرة . وهذا الرأي الذي أبداه جول لمر لا يقوم عند كثيرين اعتراضاً على روسو . فقد جعل روسو من تربية الحوادث ما يقيم في النفس ثورة الشر إن راضت الشاب على حسن تقدير النتائج بعد فهم مسبباتها . فالشاب الذي رباه روسو لا يرتكب الشر إشاحة بقلبه الطاهر عن الشر ونظراً لما يترتب عليه من النتائج السيئة ولو في مستقبل بعيد . وليس من شك في أنه في هذا يفضل المبتعد عن الشر لغير سبب إلا مخافة عقاب الآخرة .

أما الاعتراض الثاني فقائم على أنك لن تضمن بقاء الطفل بعيداً عن المسألة في أمور الدين إلى أن تعرضها عليه . فإن طلعة الصغار شديدة ولا تحشى مفاجأة أصعب المسائل . وأى طفل لم يسأل من أمور الحياة في أدقها ؟ فكيف كان الماء ؟ أمطرته السحب . وكيف كانت السحب ؟ كونها بخار الماء المتصاعد بسبب حرارة الشمس . ولكن كيف كانت الشمس وكيف كان الماء ؟ هذه سلسلة من المسائل التي ترد على لسان الأطفال والتي يفر أكثر الآباء منها عن الله بعرض فكرة يضل فيها خيال الطفل زمناً ثم يكبرها بسبب هذا الضلال ثم يؤمن بها بسبب اكباره إياها ثم تصبح عنده عقيدة على نحو ما سبق بيانه . ولا سبيل لانتقاء الخطر إلا بإلزام الطفل السكوت . وما دام تلميذ روسو قد اعتاد الطاعة فهو لا يجد في هذا السكوت خروجاً على قاعدة سابقة .

إلى جانب الاعتراضين العمليين السابقين يوجه إلى روسو اعتراض عام . لماذا يرى ضرورة عرض المسألة الدينية على الشاب عن طريق التعليم والتلقين

ما دام الشاب قد وصل من ملاحظاته ومن سنه إلى مقام يسمح له بفحص الأشياء والأفكار وبتقديرها قيمتها . أفلا كان من الواجب أن تطرح عليه أوجه النظر المختلفة بله المتناقضة ليمحصها وليختار منها ما يشاء . وإذا كان روسو قد انتقل من البروتستانتية إلى الكاثوليكية واختلط بالملاحدين وبحث هذا كله ووصل منه إلى رأى ونتيجة ، فلم لا يسمح لتلميذه بمثل هذه الحرية في البحث والنظر . . إن نظريات الدين والإلحاد والشك كثيرة يتباين بعضها ويتقارب البعض مع وجود اختلاف يسمح لكل أن يكون ذا شخصية مستقلة بارزة . وهل نظرة كل منا إلى هذه المسائل إلا متعلقة بمزاجه وبأمنيته في السعادة . . أو على الأقل في الطمأنينة في الحياة . فالمعتزل والمتشكك يبغى من عزله ومن تقشفه ما يبغيه المترف والمتطرف في الأبيقورية من نعمة السعادة . ألم تر قوماً نزلوا عن كل معاني النعمة وأخذوا بأسباب الزهد طمعاً في السعادة . وهل لم تر آخرين كانوا قد زهدوا في الحياة ثم رأوا زهدهم سخرية وهزواً فرجعوا إلى الحياة ونعيمها معتبرين الألم عرضاً مهما تطاول به العهد مؤمنين بساعة النعيم مقدرين فيها عوضاً عن كل شقاوة وتعب .

والزاهدون يقيمون رأيهم في الزهد على إحدى فكرتين متناقضتين . . التخلي عن لذائذ هذا العالم طمعاً في نعيم العالم الآخر ، أو التخلي عن كل نعيم ولذة لأن اللذة والنعيم هما أساس الشقاوة والألم . كذلك يقيم الناعمون رأيهم على فكرتين متناقضتين . . الاقتناع بأن هذه الحياة الدنيا هي دار النعيم . أو القول بالعمل للدنيا كأنك تعيش فيها أبداً وللآخرة كأنك تموت غداً . فأى هؤلاء جميعاً على الحق ؟ ولم تريد بتلميذك أن يأخذ في سبيل ربما كانت أضل السبل إذا قرنت إلى مزاجه ؟

لكن روسو لم يفكر في هذا الاعتراض ولم يعن به : هو قد وصل إلى رأى اعتقده حقاً . وهو يرى وجوب الوصول بتلميذه لدرك هذا الحق .

* * *

ما هو هذا الحق الذى سيعرضه روسو على تلميذه . إنه يرى في الأديان جميعاً أساساً لحقيقة . ويرى التعصب لأى دين سخافة لا تغتفر . ويرى الإيمان أمراً لا يحتمل الشك . لهذا فهو سيعرض على تلميذه الذى رباه ليكون رجل الطبيعة ديناً هو الدين الطبيعى ، وسيعرضه على لسان قس من السافوا مخافة

أن يؤخذ هو به وينى من أجله .

يذكر القارئ أن روسو كان أيام تشرده في إيطاليا بعد تركه مدام دفارانس قد دخل ديراً في تورين وقد قابل بعد ذلك قسيساً اسمه جيم قال روسو في اعترافاته إنه هو الذى هداه في عقيدته وإنه هو قسيس السافوا الذى ضربه مثلاً لصاحب الديانة الطبيعية في كتاب التربية . على أن مراجعة تعاليم قسيس السافوا في كتاب التربية تقنعنا أن هذا القسيس الداعي للديانة الطبيعية هو روسو نفسه . وهو هنا كأميل في التربية وكسان برى في الهلويز وكالرجل الطبيعى في خطاب التفاوت . تلك الصورة المحبوبة التى يعشقها روسو من كل قلبه : صورة ذاته على ما يجب لذاته أن تكون .

ولد هذا القسيس مزارعاً فقيراً مهياً بمركزه الاجتماعى لفلاحة الأرض واستغلالها ، لكن أبواه أرادا أن يخرج من هذه المهنة ليكون رجلاً من رجال الدين . وهما لم يريدوا ذلك حباً في الحق ولكن طمعاً في مركز أحسن لابنهما . بلغ الغلام ما أراد أبواه أن يبلغه ، وأصبح قساً ومنع عليه أن تكون له زوج أو امرأة .

وعلى الرغم مما يبيحه له مركزه من الاختلاط بالعائلات فقد كان شديد الاحترام لقراش غيره . لذلك انفضحت أغلاطه وغضب رئيسه عليه فشعر بالظلم واثرت نفسه ضد ما غرس فيها من تعاليم الكنيسة عن العدل والحق والشرف وشك في كل ما كان من قبل مقتنعاً بصحته .

« تلك حال حرجة أليمة فليس من شأنها أن تدوم . وإنما يحبسنا عندها مقتضى النقص أو خمول الفؤاد . ولم يكن قلبي من الفساد بحيث أستريح لها . وخير ما يحفظ علينا عادة التفكير أن نكون أكثر اطمئناناً لأنفسنا منا لحظنا » .

فاندفع يفكر فيما عرض عليه من قبل مطرحاً أقوال غيره جانباً : « فما من مفكر إلا يعلم أن طريقته ليست أحسن من طريقة سواه ولكنه يؤيدها لأنها طريقته . ومن منهم بعد ما عرف الحق من الباطل إلا يفضل الكذب الذى أبدعه على الحقيقة التى كشف عنها غيره . وأين ترى ذلك الفيلسوف الذى لا يرضى لمجده أن يضل مختاراً بالنوع الإنسانى كله . فتفكير كل لذاته أجدى عليه من تلك الطرائق التى وضعها أصحابها سلماً للمجد ووسيلة للشهرة » .

(ذلك رأى روسو ، فما رأى القارئ في طريقة روسو وما رأى روسو في طريقته ؟) .
 وأول ما وصل القسيس إليه من تفكيره أن وقف بأبحاثه عندما يعنيه مباشرة
 مستعيناً في ذلك بنور نفسه لا بما لغيره من لألاء كاذب . وقد هداه نور نفسه
 من أول الأمر إلى الإيمان بالله ، ولم تكن هدايته للإيمان نتيجة حجة أو دليل
 ولكن لأن الإيمان نظرية عظيمة مسلية تسمو بالنفس وتضع للفضيلة أساسها وقوامها .
 وهي كذلك واضحة جلية لا يجد الذهن الإنساني فيها من التعقيد ما يجده في
 سخافات الأفكار الأخرى . وما دام قصور الذهن الإنساني يعجزه عن حل بعض
 الاعتراضات التي توجه لكل النظريات فلا يصح اعتبار هذا العجز حجة قائمة
 ضد أية نظرية يقرها العقل ويهدي إليها نور النفس .

ذلك تدليل قسيس السافوا في أمر النظرية الإلهية . أما نظرية الاختيار
 في الحياة فقائمة عنده على أن الحركات قسمان : إرادية Spontané ونقلية
 Communiqué . فأما النقلية فترجع إلى سبب خارج عن الجسم المتحرك ،
 وأما الإرادية فقائمة به . والنقلية كحركة الساعة لا تتحرك إلا بدافع غير قائم بها .
 أما حركة الحيوان فأدخل عند روسو في باب الحركات الإرادية .

فإن شئت أن تعلم كيف عرف روسو أن هناك حركات إرادية فهو يقول
 لك : « أنا أعلم بها لأنني أحسها . أنا أريد أن أحرك ذراعي فأحركها من غير أن
 يكون ثمت سبب مباشر إلا إرادتي . وعبثاً يحاول من يريد إقامة الحجة ليفسد
 عندي هذا الإحساس ، فهو عندي أقوى من كل شاهد . وإلا لصح أن تقام لي
 الحجة على أنني غير موجود » .

وكأنما شعر روسو أن النور الداخلي ليس كافياً هنا كفايته في النظرية
 الإلهية . لأن الحركة مظهر محسوس مصدره المادة المحسوسة . فذهب إلى أن
 الأصل في المادة السكون وإلى أن الذرة الحية ليست من الأمور الممكنة الفهم
 عنده . وما دام السكون هو الأصل في المادة فالحركة عرض خارج عنها لا يتأق
 إلا بإرادة غير ماثلة فيها . وهذه الإرادة هي بالنسبة للعالم قوة الإله المسيرة للكون
 على سنن معينة ، وبالنسبة للإنسان إرادته الذاتية المختارة في حركتها .

لا أريد أن أعرض لنقد هذه الفكرة بأكثر من أن ما عجز روسو عن تصوره
 من وجود الذرة الحية وحركتها قد أصبح حقيقة لا تحتل الجدول . ومن أن السنن

المعينة التي يسير عليها الكون تحكم الجماعة الإنسانية وتحكم الفرد حكماً يجعل الحرية وهماً إن أمكن تصور خياله في الجزئيات التافهة فمحال تصوره في مجموع الحياة المؤثرة كل التأثير على هذه الجزئيات (١) .

والآن فلتتخط هذه المسألة لما بعدها . . « إذا كشفت لي المادة المحركة عن إرادة فإن المادة المحركة وفقاً لقوانين ثابتة تكشف لي عن بصيرة . والإرادة والبصيرة من عمل موجود تراه عيوننا في السماوات الدائرة والنجم المضيء وفي كل حي وفي كل مظهر » . . وهنا ينطلق روسو يذكر الوجود والموجد بقوة وحرارة إيمان قل إن ارتقى إلى مثلها كاتب من قبله . وهنا يرتعش أسلوبه تارة وينزل على الماديين غضبه أخرى ثم يرتفع بتصوره إلى ارتباط ما بين الكائنات ارتباطاً لا يمكن حدوثه عبثاً . وهنا يعهد روسو لرجال الكنيسة في فرنسا السبيل للأمر بالقبض عليه كهرطيق خارج على الكنيسة فيفر من فرنسا ويقابل في كل مكان باللعنة لهرطقته ولحاربه قواعد الإيمان .

« هذا الموجود الذي يريد ويقدر والقائم نشاطه بذاته . هذا الموجود الذي يحرك الوجود ويدبر كل شيء هو أياً كان شأنه ذلك الذي أسميه الله . وإلى هذا الاسم أقرن صور البصيرة والقوة والإرادة والطيبة التي ترتب حملاً عليها . ولكني لم أعرف ماهية هذا الموجود الذي أطلقت عليه ذلك الاسم بل هو خفي على حسي وعلى ذهني سواء بسواء . وأنا كلما فكرت فيه ازدادت حيرة واختلاطاً . فأنا أعلم قطعاً أنه موجود وأنه قائم بذاته . وأعلم أن وجودي تابع لوجوده . وأن كل الأشياء التي أعرفها شأنها في ذلك شأنى . أنا أرى الله في كل مكان تدل عليه خلائقه . أنا أشعر به في نفسي وأراه في كل ما حولى . لكني كلما حاولت مشاهدته في نفسه والبحث عن مكانه وعن ماهيته وكيانه غاب عني ولم ير ذهني المضطرب من ذلك شيئاً » . .

لهذا لا محل للبحث فيما ليس للوصول إليه سبيل . ولهذا انتقل قسيس السافوا للنظر في أمر الإنسان . فرأى أنه خير الخلائق لأنه من دونها جميعاً هو الذي

(١) راجع ما نشرناه مطولاً في أعداد يناير وفبراير ومارس وأبريل ومايو من مجلة المقتطف سنة ١٩١٧ بعنوان القدرة والجبرية . (نشرت هذه المقالات في الفصل الرابع من كتاب الإيمان والمعرفة والفلسفة سنة ١٩٦٤ - للمؤلف - الناشر) .

يستطيع ملاحظتها والحكم عليها والتحكم فيها . لكن أفضليته عليها لا تدعو إلى كبرياء ولا إلى مجد وفخر . بل إلى اعتراف بمجد الله وبحسن صبيعه .

هذا المخلوق المفضل . هذا الإنسان الذى يحكم على غيره ويتحكم فيه . هذا الجالس من الوجود فى الذروة إلى جانب عرش خالق الوجود . هذا الإنسان ليس مع سمو مكانه متمتع بما يتمتع به غيره من حيوان ومخلوق من سعادة . هو أشقى منها حسيماً . هو الذى يقاسى آلام التفاوت وشقوة الظلم والتعس . فكيف كان هذا التناقض .

الحقيقة ألا تناقض إلا عند الماديين ، وإنما هو الاختلاف بين الروح والجسد . فالروح تتعلق بالحقائق الخالدة وبالعدالة وبالعالم النفساني الذى يعيش العاقل الحكيم فى عليا مناطق . والجسد ينزل إلى حكم الحواس والشهوات وكل ما هنالك مما فى عالم النقص والفساد . . وليس من روح إلا للإنسان . أما الماديون الذين يقولون بأن الحجر يشعر كما يشعر الإنسان وأن القوة ليست إلا مظهراً من مظاهر المادة فإنما يحكمون على الأشياء الروحية التى لا يسهل على العقل الإنسانى دركها حكم الأصم على الأصوات ينكرها لأنه لا يحس بها وهى مع ذلك حاصلة . كذلك ينكر الماديون الروح لأنهم لا يحسون منها ذلك السلطان المنصرف لحوادث الكون . فكما أن الأصوات توحد برغم إنكار الأصم كذلك توجد الروح برغم إنكار المادى .

تلك تعاليم روسو . ويجب أن يكون الإنسان روحياً ليؤمن بها وليقدر مداها ، كما يجب أن يكون الإنسان سمعياً ليقدر حجج السميع والأصم ويحكم بينهما . ذلك مع وجود فرق بين الحالين ؛ فالسمع حاسة تتصل بالوجود المحسوس فى أثرها وتأثيرها . والروح التى يعبر عنها روسو قوة تتصل بالعالم المعنوى من غير أن يكون لها فى العالم المحسوس أثر محسوس .

وجود الروح بنى التناقض الذى يزعمه الماديون ؛ ذلك بأن الإنسان كما سبق القول مريد مختار . وليس معنى الاختيار الضرب فى تيهاء الفوضى . فأنا بلا شك لست حراً فى ألا أريد الخير لنفسى . ولست حراً فى إرادة الشر لنفسى . وإنما قوام حريتى ألا أريد إلا ما يوافقنى أو ما أراه من غير أن يكون لشيء سواى مدخل فى اختياري . وليس تفسير الاختيار على هذه الصورة بالعجيب .

فإن الله خلق الإنسان على صورته . والله لا يريد إلا الخير لتعلقه بطبيعة وجوده .
والخير هو التوازن وهو نظام العالم . فالشر خروج على النظام وإخلال بالتوازن .
وهو مهما تعاضل فلن يصل من الإخلال بالتوازن إلى شيء في أمر العالم العظيم . لهذا
لا محل للتساؤل عن سبب عدم مداخلته الموجود الأعلى لمنع هذا الشر ولكبح جماح
الفساد . ولهذا كان الإنسان أكثر اختياراً وأثقل مسئولية .

اختيار الخير أساس السعادة . أما الشر فلا يلد إلا بؤساً وتعباً ، وأحزاناً
ومخاوفنا وآلامنا إنما تصيبنا من عند أنفسنا . والشر الخلقى هو قطعاً من عملنا
كما أن الشر الجسمى لن يكون شيئاً لولا فسادنا الذى يجعلنا نحس هذا الشر
ونشعر به . ألا ترى إلى الطبيعة كيف جعلتنا نحس بحاجتنا حتى يظل وجودنا .
ألا ترى أن الألم المادى إنما هو آية ارتباك جسمنا والنذير لاتقاء هذا الارتباك .
أما الموت فهو الدواء لما توقعك فيه أعمالك من الشرور . ذلك بأن الطبيعة
أرادت ألا يمتد بك الألم إلى الأبد .

وما أقل ما يلقاه الرجل الذى يعيش يعيش البساطة الفطرية من مواضع
الألم . فهو يعيش من غير مرض ومن غير شهوة وهو لا يتوقع الموت ولا يحس به .
فاذا هو أحسه كان فيه رغباً بقدر حبه فى الخلاص من شقوته وآلامه . وكان لذلك
لا يرى فيه شراً ، ولو أنك خلصت الناس من هذا التقدم المزعوم ومما جره عليهم
من شرور وخطايا ثم لو أنك رجعت بهم إلى عيش الطبيعة ووحيا إذن لأنجيهم
من الشر ومن العذاب ومن خوف الموت .

واختيار الخير من عمل الروح والارتكاس فى الشر من نزوات شهوات الجسد ،
وما تنزل إليه من درك الشر طوعاً بحكم الشهوة وخروجاً على أمر الروح هو الذى
يسرع بجسدنا إلى القناء وهو الذى يجعلنا نشعر بألم الموت . وأولئك المنعمون الذين
يظلمون الناس ويضربون بالفضيلة عرض الأفق ويزعمون النعيم على هذه الأرض
هم الذين يقاسون هذا الألم أكثر من سواهم ، ذلك عدل الخير البصير ..

يوم تفترق الروح عن الجسد يرجع إليها كامل نشاطها ؛ فتبدأ بالتكفير
عما سبق لها من ضعف فى قياد الجسد ومن خمول فى تغليب الخير على الشر .
ويومئذ ترى الروح التى كانت مثقلة الجناح إبان عيش الجسد تحيا حياة طيبة
بعد هلاكه .

« هل الروح خالدة بطبعها ؟ ذلك ما أجهله . فإن عقلى المحدود لا يسهل شيئاً غير محدود . وكل ما لا نهاية له يعزب عني . . وإنما أحسب أن الروح تبقى بعد الجسد أمداً يكفل حسن النظام . وليس من يدرى إذا كان الأمد يمتد إلى الخلود ، ولكننى إذا قدرت على تصور كيفية هلاك الجسد وفنائه بتشتت أجزائه فلست أستطيع تصور هلاك كهذا للموجود المفكر . وما دمت لا أستطيع تصور كيفية هلاكه فأحسبه لا يهلك ، وما دام فى هذا الظن لى عزاء وليس فيه ما يتنافى مع العقل فلست أدرى ما الذى أخشاه إذا أنا أخذت به . »

. . إذن فالروح خالدة إن كان الدليل على وجودها مجرد إحساس روسو أن ليس لديه على هلاكها من دليل .

هذه الروح الخالدة تحيا حياة طيبة بعد هلاك الجسد ، وهى تحيا سعيدة أو شقية بما قام به صاحبها إبان حياة الجسد من خير أو شر . ذلك بأنها وقد جاورت الكائن الأسمى ونخلصت من هموم الحياة الدنيا ترجع إلى نفسها تحاسبها عما قدمت ثم تقيسه إلى الحقيقة الخالدة البادية أمامها والتى كانت هى مثلاً لها على الأرض . . وليس يعلم قسيس السافوا إن كان ثمة جزاء للروح غير السعادة أو الشقاء فى جوار الله . وهو لا يعلم كذلك إذا كان شقاء الأرواح التسعة خالداً . وهو تكفير ينتهى بالغفران . ولكنه يشعر بأن السعادة فى جوار الله خير نعمة تجعل العيش على هذه الأرض لذة تدفع إلى معالجة الفضيلة ومجاهدة الشر فى أثناء الحياة . . وكيف لا يكون ذلك لذيداً . وهل لذة فى الحياة إلا لذة المجهود الشاق ينتهى بنعمة السعادة الخالدة .

جزاء الروح نتيجة أعمالنا فى الحياة الدنيا . فإذا كانت روحنا قوية فأسمعتنا صوته وأخذنا به ظلت سعيدة . وإن كانت ضعيفة فخضعت لحكم الجسد وأخضعت له كانت شقية . . « ذلك بأن الضمير صوت الروح والشهوات صوت الجسد . فهل عجب أن يغلب على هذين الصوتين التناقض . وإذن فلأى نستمع ؟ ما أكثر ما يضلنا العقل حتى لقد صار من حقنا الثابت أن نرد حكمه . أما الضمير فلن يضلنا . هو مرشد الإنسان الحق وهو للروح بمكان الفطرة من الجسد ، فمن اتبعه أطاع الطبيعة ولم يخش ضلالاً . »

الضمير صوت الروح ، والروح من أمر الله ، والله لا يريد إلا الخير ،

فالروح لا تعمل إلا للخير . والروح هي أساس وجودنا وهي القوة التي تبعث الحياة في الجسد الكثيف . إذن فالخير في أساس وجودنا . وإذن فالإنسان طيب بطبعه .

الإنسان طيب بطبعه . ما أعز هذه الصيغة على روسو . لقد رأيناها في خطاب عدم المساواة ورأيناها في كل ما كتب بعد ذلك . وها نحن أولاء اليوم نراه يدلل عليها تدليلاً تجريدياً بعد ما دلل عليها تدليلاً تاريخياً .

وتدليله التجريدي في أبسط صوره هو على ما رأيت أن الله خلق الإنسان على صورته . والله طيب بطبعه . فالإنسان طيب بطبعه . وليس في مظاهر الحياة إلا ما يؤيد أن الشر ليس إلا خبثاً يغطي الأصل الطيب إلى حد إخفائه أحياناً ، ولكن من غير أن يحل محله أبداً . وهل رأيت نفساً مهما بلغ من قسوتها إلا متأهبة لعمل الخير عند سنوح الفرصة . وهل رأيتك يوماً وقد أفدت لنفسك بشر جنيته على غيرك إلا حز الندم في قلبك ، فإذا أفدت غيرك خيراً تريد إفادته إياه رأيتك سعيداً أكبر السعادة . . وهلا ترانا جميعاً نفرح للخير ونجزع للشر ونظهر بالخير ونتوارى من جنى النكر « شأنا في ذلك شأن الناس جميعاً » . التو بنظرك على كل أمم الأرض وراجع كل التواريخ تر أفكار العدالة والأمانة كما ترى مبادئ الأخلاق وصور الخير والشر هي هي بعينها فيها جميعاً : ذلك بأن مبدأ العدالة والفضيلة أصيل في أعماق النفوس ، ونحن على الرغم من قواعدنا نقيس على مقتضاه أعمالنا وأعمال سوانا وعلى مقتضاه نفرق بين الطيب منها والخبيث ، وهذا المبدأ هو ما أسميه أنا الضمير . .

هنا يشعر روسو بالاعتراض يوجه إليه من كل جانب . فهو يرى ، أو بالأحرى يشعر ، بأن الضمير هو فكرة الخير القائمة بالنفس الإنسانية من حين خلقها . ويرى لذلك أن الخير والشر والحق والباطل والطيب والخبيث صور وأفكار ثابتة لا يعمل فيها زمان ولا مكان . أما غيره فيقول إن الضمير الفردي ليس إلا صورة وجدان المجموع منطبعة في نفس الفرد . ولما كانت آي إيمان المجموع أفكاراً نسبية هي الأخرى لأنها ليست إلا التعبير عن أحسن الظروف التي يمكن للمجموع أن يعيش فيها فممكن بل حاصل أن آي الإيمان تختلف من جيل لجيل ومن أمة لأمة . ألسنت ترى أن النهب والسلب كانا مجداً في زمن من الأزمان وعلماً على

الفروسية ثم أصبحا من بعد ذلك جرمة تجزى بأشد العقاب . وقد بلغ احترام الملك الخاض مبلغ العقيدة العامة في الماضي القريب ، وها هو ذا اليوم موضع الطعن والنضال من كل جانب . صحيح أن القواعد الأساسية لحياة الجماعات لم تتغير تغيراً جوهرياً فيما نعلم . وأن الفطرة الحاكمة فطرة الاحتفاظ بالوجود لا تزال توجهنا سبيلنا وتوحى إلينا بطرق سلوكنا . لكن هذه الفطرة ليست من أمر الروح . وهى ليست إلا ملاءمة الجزء للكل الذى يشمل ملاءمة مادية أولاً . وهذه الملاءمة تتغير صورها بتمور وجود الكل . وهذه الملاءمة هى التى تشكل الضمير الفردى على مقتضياتها .

على أن روسو لم يقف أمام هذه الاعتراضات ولم يرد عليها بأكثر من أنها لا تتفق مع حسه وشعوره ، وبأنه ليس محالاً أن تترتب أعمالنا على مقتضى ضميرنا وإدراكنا . ثم قضى عليها قضاء أخيراً بهذه الصيحة الخطابية الشعرية البديعة : « إيه أيها الضمير . إيه أيها الفطرة الإلهية والصوت السماوى الخالد ، إيه أيها القائد المسكين لمخلوق جاهل قصير مدى النظر حر بصير . إيه أيها الحكم الفارق بين الخير والشر . إيه يا من تجعل الإنسان شبيهاً بالله . أنت الأساس لطبعة الطيب ولتأدب أعماله . ولست أرى شيئاً غيرك يرفعنى فوق الهائم إلا ما امتاز به من الضرب في الضلال مستعيناً بذهن لا نظام له وب عقل ليس له من أساس » . لكنه يشعر باعتراض آخر يحسبه ذا خطر . إذا كان الضمير هو صوت الروح والمرشد للخير فلم استعبدت الروح للجسد استعباداً يجعلها في نضال مستمر معه . وبعبارة أخرى لم كان للشر مثل ما للخير على الأرض من سلطان . إن القطع في أمر الاعتراض لا يكون إلا لمن دخل في علم الله . أما علمنا فيرشدنا إلى أن الشر إنما وجد على الأرض ليكون الخير ولكون الفضيلة وليكون لثوبتهما بالسعادة الخالدة في الدار الآخرة موضع .

ولا سبيل للاستماع لصوت الضمير ووحى الروح إلا بالخلوص من حكم المادة . ولن يكون خلاص إلا بالعودة للحال الطبيعية ، فإن المدنية وأذيالها من ترف ونعيم ومن علوم وفنون ومن فلسفة وتفكير لا شأن لها إلا أن تغشى على الضمير وتحجب وحي الروح وتزيد في حكم المادة وتقعد بالنفس عن الاتصال بملكوت الله . فإذا نحن نجونا من حكم المادة اتسع نطاق العالم وأماننا وامتدت إلى اللانهاية آفاق

روحنا فوجدنا في هذه السعة مسرة للنفس وسيلا للسعادة .

« ولأرتقى قدر المستطاع إلى تلك الحال من السعادة والقوة والحرية جعلت أروض نفسي على التأملات العليا . فتأملت نظام العالم لا بغية تفسيره بعث من الطرائق بل لدوام الإعجاب به وإجلالاً للخالق الحكيم الذى تظهر آثاره من خلاله . ثم ناجيته حتى استغرقت كل قوى فيه وحتى ذقت فضله وباركتنى روحه المقدسة لكنى لم أصل له ولم أرجه شيئاً . وأى شئ أطلب إليه . . أأطلب إليه أن يغير نظام الأشياء من أجلى أو أن يحدث المعجزات لمصلحتى . وهل كنت وأنا أعشق النظام الذى أقامته حكمته وأمسكته قدرته لأريد أن يضطرب هذا النظام لفائدتى ؟ كلا . فإن هذه الرغبة الخرقاء أجدر بأن تجزى منها بأن تجاب . ولست أطلب إليه أن يقدرنى على عمل الخير فما كان لى أن أطلب إليه ما سبق أن أعطاه لى » .

* * *

لاحظ القارئ من غير شك أن قسيس السافوا وهو رجل من رجال الدين لم يلجأ فى كل ما قدم من تعاليمه إلا لوى الضمير وهدى البصيرة . وهذا ما لاحظته محدثه فى كتاب روسو ، فسأله رأيه فى الوحي والنبوة والرسالة ، فما لبث أن انطلق انطلاقة الأولى حين مجد الله ورآه فى كل أعماله . لكنه انطلق هنا بنى الوحي والنبوة والرسالة بمثل تلك القوة والشدة ، وهو لم يكتف بنفيها بل جعلها أساساً لعدم التسامح بين الناس ولما جر إليه عدم التسامح من حروب أريقته فيها دماء وأزهقت فيها أرواح وما لا يزال يجر إليه من فتور علاقات الأخوة الإنسانية الواجب أن تكون .

قال : « يزعمون وجوب الوحي لتعليم الناس طريق عبادة الله ، ويقدمون دليلاً على زعمهم اختلاف الأديان العجيبة التى أقاموها ، ولا يرون أن هذا الاختلاف راجع إلى أذواق أصحاب الوحي ، فمن يوم أراد الناس بالله أن يتكلم استنطقه كل منهم على طريقته وجعله يقول ما يريد هو قوله ، ولو أنهم لم يستمعوا إلا لما تكن قلوبهم من قوله لما كان على الأرض إلا دين واحد » .

هذا الدين الواحد هو الدين الطبيعى الذى عرضه القسيس فى سابق تعاليمه . أما أديان الوحي فكثيرة ومتعددة ويدعى كل منها أنه دين الهدى والحق . فإذا سألت أصحابه كيف عرفتم أن دينكم دين الهدى والحق أجابوك « كذلك قال الله » .

وما أدراك أن الله قاله . . إنه قسيسى وهو به عليم .

عجب أن تكون تلك لهجة المؤمن روسو ، وهو هذا العجب الذى يدعونا لنفصل هنا بعض الشيء رأيه فى أمر الوحي والنبوة من غير أن نعرض له بنقد أو إقرار ولأن نكثر من ترجمة نصوصه التى أضافت فى هذا الباب إلى الصيغة الخطائية التى يمتاز بها أسلوب روسو صيغة تهكمية قد كان فولتير الملحد الساخر أخرى بها وأجدر .

وإنما دعا روسو لهذه اللهجة القاسية ما رآه وهو نصير حرية العقل والفكر من ضرورة مهاجمة سلطان الكنيسة المستبد مهاجمة عنيفة . ولما كان سلطان الكنيسة قائماً على الاستثثار بكلمة المسيح واحتكار تفسيرها واعتبار التفسير جزءاً منها وردّها جميعاً إلى الله فلم يكن النقد البسيط كافياً لزعة تيار مستبد زاده مر القرون ثباتاً وقوة . صحيح أن قيام البروتستانتية فى القرن الخامس عشر وانتشارها بعد ذلك هد من ركن الكاثلكة فى بلاد شتى . لكن البروتستانتية كانت مذهباً تعبدياً كالكاثلكة وكل ما فيها أنها جعلت للشروح والتفسير الكنائسية مكاناً ثانوياً إلى جانب الكتاب المقدس . فهى بذلك لم تكن إلا ثورة جزئية على النظام القائم . وهى بذلك لم تزد على أن أضافت فرقة جديدة من الفرق المتدنية المتعصبة لمذهبها المستعدة لأن تريق فى تعزيزه ونشره الدماء وتضحى بالمهج والأرواح . وليس هذا ما يريده روسو المتسامح عدو التعصب والجمود ، فلم يكن بد من قيامته فى وجه ما اعتقده أساس التعصب ، وأساس التعصب هو الانحياز الأعمى لشخص ورفع عن مستوى البشر وتقديسه ثم تأليهه .

« ولولا بناء الدين على الوحي لما كان شيء من هذا التعصب والجمود . فلننظر الآن لهذا الوحي أساس المجازر والفظائع وإن يك عند أهله مهبط الهدى والحق .

« ماذا عندك يا رسول الحق مما لا حكم لعقلى عليه ؟ لقد تكلم الله فاستمع لوجيه ! ذلك شأن آخر ، لقد تكلم الله ، هذا أمر جلل ، ولئن تكلم ؟ لقد كلم الناس . لم إذن لم أسمع أنا شيئاً ؟ لقد ألقى على رجال آخرين ليبلغونك كلمته . . الآن أرى ، هم إذن رجال يلقون إلى بما قاله الله ، إلا أنه أحب إلى أن أسمع الله بنفسى . وما كان ذلك ليشق عليه ، وكنت أنا فى حرز من الضلال . لقد حفظك

منه بما ثبت به رسالة أنبيائه . وبم ثبوتها ؟ بالمعجزات . وأين هاته المعجزات ؟ في الكتب . ومن وضع هذه الكتب ؟ . رجال . ومن رأى هذه المعجزات ؟ رجال شهدوا بها عجباً . شهادات رجال دائماً ، رجال ينقلون إلى ما نقله إليهم رجال غيرهم ، ما أكثر الرجال بينى وبين الله ، فلننظر على كل حال ولنبحث ولنحقق ولنقارن ، أو لو أعفانى الله من كل هذه المشقة كنت ترائى أقل إخلاصاً في خدمته .

« لنفرض أن العظمة الإلهية رضية أن تنحط فتجعل إنساناً واسطة إرادتها المقدسة ، أترى من العقل والعدل أن يفرض على الجنس البشرى كله طاعة هذا الرسول ما لم يبين الله للناس أنه رسوله ، وهل من الحق أن يكون كل ما لديه من دلائل الإقناع بعض مظاهر خاصة يقوم الرسول بها أمام نفر من الناس لا قيمة لهم ، ثم لا يعلم سائر الناس عن هذه المظاهر شيئاً إلا بالتناقل والإشاعة ، ولو أنك صدقت من المعجزات ما يقول الشعب والبسطاء من كل أمة إنهم رأوه لكانت كل طائفة هي طائفة الهدى ولكانت المعجزات أكثر من الظواهر الطبيعية عدداً ثم لكانت كبرى المعجزات انعدام المعجزات حيث يكثر المتعصبون الذين يلقون العنت في دينهم ، تلك سنة الطبيعة لا تبدل فيها وهي تدل على حكمة اليد المدبرة للطبيعة ، فلو أن المستثنيات كثرت لضل بي التفكير فيها ، وإن إيماني بالله لأجل من أن أصدق هذا الجرم من معجزات لا تليق بحكمته ولا بكرامته . »

ولو أن الرسول الذي يزعم أنه من عند الله بدّل سنته فأطلع الشمس من المغرب وأخلف نظام الفلك وذلك الجبال وغير معالم الأرض لصدّقناه أن أتى في الكون بما لا طاقة لغير مبدع الكون به . أما سخریات السحر فلا معجزة فيها ، أو ما ألقى سحرة فرعون عصيهم كما ألقى موسى عصاه فانقلبت حبات كلها ؟ وهل كان السحرة رسلاً صغاراً أو كان موسى ساحراً كبيراً . وإذا عجزت المعجزة عن إثبات الرسالة فكيف تثبت الرسالة المعجزة ، أم تكون بذلك في حال من التداول لا تدل على شيء .

« يجب أن توسم الرسالة الآتية من عند الله بسمي الألوهية . فليس يكنى أن تستير بها الأفكار المضطربة التي يلهمها التفكير لأذهاننا . بل يجب أن تعرض علينا عبادة وأدبا وقواعد جديدة لما تنصّره من صفات الله . فإذا هي لم ترشدنا

إلا للأشياء السخيفة غير المعقولة ولم تلهمنا إلا عواطف البغضاء لأمثالنا والجزع من أنفسنا ولم تصور لنا إلا إلهاً مغضباً غيوراً منتقماً محايياً كارهاً للناس إله حرب وضرب ، دائم الاستعداد لأن يهلك ويصعق ، لا ينفك يقص أمور العذاب والعقاب ويفخر حتى بمعاينة الأبرياء « إذن لما مال قلبي إلى هذا الإله الفظيع ولحزنت على الديانة الطبيعية لا أتركها لاعتناق ذلك الدين ما دام لا محيص من الاختيار » .
وهذه الرسائل كلها تزعم أنها على الحق وأن غيرها على الباطل . وتذهب إلى رمي من لم يعتنقها بالكفر وتهديده بعذاب الآخرة الغليظ . هذا على أنك لن تستطيع أن ترد إلى دينه رجلاً ولد في دين من الأديان فاختلطت عقائده بلحمه ودمه ثم ظل في سداجة ولم يجد من الوقت ومن العرفان ما يمكنه من بحث ألوف المجلدات التي كتبت في الديانات المختلفة ليرى أصلحها . ولو أنه بلغ من العرفان هذا المبلغ لما كفت حياته كلها للوصول إلى هذه النتيجة . أفترك الناس طراً أعمالهم وواجبات حياتهم للقيام بهذا البحث العقيم جرياً وراء ما يسمونه سلام أرواحهم وإن هم فعلوا ذلك أتراهم يصلون إلى شيء من هذا السلام ؟ أم تختلط أمام أفهامهم ألوف الصور المضطربة التي وضعها الروحيون والمتكلمون والفلاسفة والشعراء فيزدادون ضلالاً وينتهي بهم الأمر إلى الجنون .

وما قولك فيمن لم تصل لهم الرسالة ؟ أهم يجزون بعدم علمهم ؟ إن ألوقاً من ملايين البشر يدينون بغير المسيحية وبغير اليهودية وبغير المحمدية ، فهل أرواح هؤلاء جميعاً آوية حتماً إلى سقر . وهاته الأديان الثلاثة ، أيها على الحق . وما ذنب من ولد مسلماً بإسلامه وما ذنب من ولد يهودياً بيهوديته ؟ !
على أن الإنجيل يخاطب قلب قسيس السافوا ولا يستطيع له ردّاً ولو كانت حياة سقراط وموته لحكم فإن حياة يسوع وموته لإله .

« هذا هو التشكك الذي بقيت فيه على غير إرادتي . لكنه تشكك غير أليم لأنه لا يشتمل خطير مسائل الحياة العملية ، ولأنني ثابت اليقين في المبادئ المتعلقة بكل واجباتي . فأنا أعبد الله بقلب ساذج ولا أبحث عن علم مالا يقتضيه سلوكي » .

* * *

تلك تعاليم قسيس السافوا وتلك أسس الديانة الطبيعية . وقد أحدثت رجة

عند نشرها انتهت بالقبض على روسو كما سبقت بنا الإشارة وكما سنفصله في فصل مقبل . وهذا الدين هو في نظر العلماء الواقعيين (الوضعيين) آخر صور العقل التجريدى ومظهر احتضار الإيمان القلبي . ذلك بأنك متى أنكرت الوحي ورجعت إلى حكم العقل ورددت إلى الفرد حرية التفكير كنت قد أتحت لكل فرد أن يبحث ويحكم مادام على البحث والحكم قدراً ، ولن تضمن أن يتفق نظر الباحثين والعلماء مع نظر قسيس السافوا . أو لم ير قسيس السافوا نفسه أن فلاسفة عصره كانوا على خلاف في الرأي معه . أو لم ير من بينهم الملحد والمتشكك والمادى . فأى ضمان له في إيمان الجميع بالدين الطبيعي الذى يدعو إليه . هو مادام قد أطلق العقل من عقال الوهم ورفع عنه سلطان الكنيسة فقد أباح له الحرية الطبيعية الكاملة . وما دام حراً فلن تكون شعريات قسيس السافوا منتهى مدى نظره . بل سيخلف قسيس السافوا أوجست كومت ودارون وهربرت سبنسر وبرجسن وغيرهم من العلماء والفلاسفة والمفكرين . وسينادى لدانتك بالإلحاد المطلق وبالثنى ، وسيكون ذلك كله مظهر حرية الفكر التى دعا إليها روسو وستكون هذه الدعوة لذلك سبباً لمطاردة الكنيسة إياه بقية حياته .

* * *

إلى هنا عرف أميل الوجود وما فيه . وعرفه بعد ما تكونت ملكاته تكويناً يمكنه من الحكم عليه ، وإلى هنا انتهى دور الطفولة والتربية ، فهل لم يحن الوقت بعد ليركه أستاذه لنفسه حراً ويعمل حراً ويعيش حراً .

ذلك رأى الأكثرين من علماء التربية ، ولكن حذار من اتباعه ، إن الشاب في هذه السن أحوج ما يكون للمرشد المخلص الصدوق ، وإذا كان عقله قد بلغ حد القدرة على حكم الأشياء فإن شهواته الناشئة قد تضل حكمه وتفسد تربيته وتدفع به في أسوأ السبل ، في هذه السن تفتح ينابيع الحياة الجنسية إلى حد قد تحرف معه حياة الشاب ثم تذر خاوياً ، وفي هذه السن يفتح القلب للحب ، فما لم يكن له من أستاذه مرشد يهديه السبيل وسط هذه المخاطر زلت به القدم وسط الجماعات وبين الشباب الذى يقدم له المثل السيئ باندفاعه في تيار الشهوات وإمعانه في تحصيل كل ما يستطيع منها .

على أن الذين يميلون للنصح إلى الشباب في هذه السن يرتكبون شتى الأغلاط

ويدفعون الشباب عن غير قصد إلى حماة اللهو واللذائذ . وأول ما يرتكبونه من ذلك أنهم يلقون على الشباب من أعلى منابرهم قواعد السلوك وكأنما نسوا أن ما يلقى من أعلى المنابر لا يترك من الأثر إلا بمقدار ما يسمح لأول ظرف ولأول فرصة تصادمه بنسيانه ومؤاتاة ما يناقضه ، لأن هؤلاء الخطباء يكتفون بإلقاء الفكرة وتعزيزها بحججهم اللفظية ، أما ظروف الغواية فتجر وراءها جنداً من الآيات التي تفرزها وتؤيدها . وتجرح وراءها اللذائذ والشهوات والمثل الفاسد لابسة كلها براق ثوب الجمال والظرف والنعمة والمسرة ، أفترى تلك الحجج إلا متطيرة أمام هذه الدلائل الرقيقة ، وهلا تكفى النظرة الضاحكة والابتسامة البديعة والثغر الحلو ولفظه العذب لتنسى الشاب أبلغ الخطب وأطولها .

لذلك يرى رسو وجوب بقاء الأستاذ مع تلميذه ووجوب ملازمته إياه في هذه السن ملازمة وثيقة ، على أنه ينقله هنا من مركز الأستاذية إلى مركز الصداقة ويجعله مع تلميذه بحيث يتباحثان ويتناقشان في كل أمر من الأمور ، وهذه الصداقة وتلك الملازمة تضمن ابتعاد الشاب عن الأوساط السيئة وما تقدمه من مثل فاسد كما تضمن أن يظل على خلاق حسن .

كذلك من أغلاط الذين يريدون توجيه الشباب توجيهاً حكيماً يحميهم من أذى الشهوة أن يغمضوا إليه الحب وأن يجعلوا مجرد التفكير فيه في تلك السن جريمة حتى وكأنما كان الحب للعجائز ، « وهذه التعاليم المضلة التي يكذبها القلب لا تنفع أبداً . وترى الشاب تقوده فطرته الأمانة ليضحك سراً من هذه التعاليم التعمية وإن أبدى الموافقة عليها وينتظر الفرصة التي يعمل فيها على نقضها ، وهم في ذلك إنما يواجهون الطبيعة . أما أنا فأسلك سبيلاً يضاد سبيلهم ثم أصل حتماً إلى الغاية التي يريدون بلوغها . فلست أخشى أن أملق فيه العاطفة الرقيقة التي تملأ جوانحه وإنما أرسمها له كأبدع ما في الحياة من صور السعادة لأنها هي كذلك القلوب لذة الحسن كنت قد كرهت إليه الفجور وجعلته حكيماً أن جعلته مجباً .

« وإنما أقول للشباب : إن قلبك يحتاج إلى رقيقة فهلم نبحث عن توافقه ، وقد لا يكون وجودها بالأمر اليسير ، فإن الفضل الصحيح نادر لكننا لن نتعجل

ولن نياس ، فليس من شك فى وجود من توافق قلبك وسنجدها آخر الأمر أو نجد من تقرب منها .

ويصف روسو لأميل من يحسبها أوفق من تصلح له ويدعوها صوفيا ويسعى وإياه للبحث عنها ، وفى خلال هذا البحث يذهب روسو بتلميذه إلى المجتمعات غير خاش عليه سوء أثرها أن صار بمنزلة تمكته من الحكم عليها من غير اندماج فيها ، كما أنه وهو فى بدء الصبا يستطيع أن يعرف أخلاق أهلها ووسائل الأخذ والرد معهم وسبل التصرف فيما يعرض أمامه من أمورهم . ولو أنه غشى هذه المجتمعات صغيراً لتكونت فى نفسه عادات قد لا يكون حيناً عليه أن يتخلص بعد ذلك منها . وإنما خطر هذه المجتمعات ما تزينه للشهوات من خادع المظاهر ، لكن إشراف الأستاذ على تلميذه حصن يقيه هذا الخطر وضمان لبقاء سلطان العقل حاكماً كل سلطان سواه . وسلطان العقل يدعو الشباب فى هذه السن للملاحظة الناس ملاحظة دقيقة ، وليس أفتق للذهن ولا أدعى لدقة الملاحظة من الصالونات الجامعة .

« فإذا درس الناس وأخلاقهم فى المجتمع كما درسهم ودرس شهواتهم من قبل فى بطون التاريخ كانت أمامه مواضع للنظر فيما يستهوى القلب الإنسانى وفيما يصدده ، وتلك فلسفة مبادئ الذوق ، وهى أليق الفلسفات به فى هذا الوقت من حياته .

« وتجارة ما بين الجنسين هى التى تجعل الذوق الحسن أو القبيح يتشكل بصورة خاصة . ذلك بأن الذوق نتيجة لازمة للغاية التى ترمى هاته الجماعات لها ، لكن الذوق يفسد إذا تيسرت اللذة فابتذل الدلال ، وعندى أن هذا سبب من الأسباب الواضحة التى تبين لنا تعلق الذوق الحسن بالأخلاق الطيبة .

« وإنما يستشار النساء فى الأمور المادية التى يستطيع الحسن الحكم عليها كذلك فإنما يستشار الرجال فى الأمور الأخلاقية المتعلقة بالعقل . ولو أن النساء كن ما يجب أن يكنَّ لاقتصرن من الأمور على ما كان من خصائصهن ثم لصح عندئذ حكمهن ، اما من يوم أقمن أنفسهن حكماً فى الأدب وأبحن لأنفسهن تقدير الكتب وأكثرن من تأليفها فقد فقدن كل علم وكل معرفة . وليكن المؤلفون الذين يستشيرون النساء العالمات فى أمر كتبهم على ثقة من سوء المشورة . وليكن الظرفاء الذين يستشيرونهن فى أمر زيهن على ثقة من سوء هدايتهم » .

هذه المساءة الصغيرة التي وجهها روسو للنساء ليست إلا مقدمة لما سيكتبه في القسم الأخير من كتاب التربية عنهن وليست إلا أثراً من اقتناعه السابق الذي عرضناه عند الكلام عن خطاب المناظر .

وسيرى القارئ فيما بعد أن صوفياً ستكون خلواً من كل ثوب للإدعاء لأنها ستكون صورة منمقة مجملة لتريزلفاسير .

• • •

ذهب روسو بتلميذه إلى باريس وطاف وإياه في الصالونات ودرس وإياه أخلاق النساء والرجال وكل همهما من ذلك البحث عن صوفيا ، وقد استغرق ذلك زمناً كافياً للملاحظة الشاب ما لم يسبق إلى ملاحظته من أخلاق أهل زمانه وعوائدهم ، وهو لم يقابل صوفيا كل هذه الأثناء لأنها كما كان الأستاذ يعلم لم تكن مقيمة في باريس وإنما أراد روسو أن يعرض صور المدينة على تلميذه المطواع ، وما ندرى كيف ضمن هذا الأستاذ ألا يتعلق قلب أميل بباريسية تقابله في المجتمعات والصالونات قبل الوقت الذي حدده وقرره لمغادرة باريس إلى حيث تقيم صوفيا ، فإذا تعلق قلبه بباريسية رقيقة فما هي الوسيلة لخلاصه ، وهل يضمن روسو إذا هو انتزعه من ملاكه ليقذف به على الملاك الذي أعده له ألا يتقلب ما يريده من سعادته شقوة وتعباً .

لكن أميل ليس إلا رواية التربية ، وأشخاص الرواية هم من خلق خيال المؤلف ، ولخيال المؤلف أن يصرفهم على ما يشاء .

لذلك كره أميل باريس وعظمتها وضجتها وأخلاق نساؤها ورجالها وذهب إلى الريف وقابل صوفيا وكان من حظهما أن تعلق قلبه بها كما تعلق به قلبها وأن أعانت الظروف على تيسير خطبة الفتاة له . ولا اتصل الحب بينهما لم ير روسو أن الوقت قد حان لزواجهما ولم ير أن دوره كمرب قد انتهى ، بل أخذ فتاه فطاف به بلاد العالم سنتين تباعاً تعلم الفتى في أثنائهما لغتين أو ثلاثاً من اللغات الحية وجاس فيهما خلال الممالك المختلفة دارساً طباع أهلها واطلع فيهما على النظم الحكومية لمختلف الدول ، وظل خجلهما يكتاب صوفيا وتكاتبه : وما أكثر ما يضمن البعد من لاجع المحبة والشوق وما أشد ما تفعل المكاتبة في نفس المغرمين . هذه ملاحظة نقر عليها روسو ، فليس يبدو من محبوبك وهو بعيد عنك

إلا حبه ولا تحمل كتاباته إلا أظهر ما في نفسه وأحلاه ، فإذا جد بك الشوق له فأنحدرت من مآيك دمعة على القرباس الذى يحمل إليه ملتهب شوقك وحر زفراتك رأيت روحك حلت في نفسه كما حلت في نفسك روحه فكنت إليه أكثر شوقاً وكان هو بك أكثر هياماً ووجداً . وكذلك تزيد الفرة الحب ضراماً وتربط القليلين برابطة الهوى والغرام .

قال روسو : « ليست فكرة خلق الحب في نفس أميل قبل سياحاته من مبتدعاني ، وإليك الحادث الذى ألهمني إياها .

« كنت في البندقية أزور مربي شاب من الإنجليز . وكنا حول المدفأة انتقاء برد الشتاء ، وقد تناول المربي خطاباته من البريد وقرأها ثم تلا واحداً منها على تلميذه ، وإذا كان بالإنجليزية فلم أفهم منه شيئاً ، لكنني رأيت الفتى في أثناء القراءة يمزق أكمام قميصه الجميلة ويرمي بها في النار واحداً بعد الآخر ، وقد قام بهذا العمل بكل سكون جاهداً ألا يأخذ أحده منه باله ، فدفعني عجبى لهذه الفعلة أن أحقق به ، فخلته متأثراً ، فانتظرت بالأستاذ حتى أتم تلاوته ، ثم أشرت إلى معصم تلميذه العارى وقلت : أفيمكن أن أعرف معنى هذا ؟

« فلما رأى الأستاذ ما حدث ضحك ثم قبل تلميذه قبلة الرضا وشرح لي ما أردت بعد أن حصل على موافقة الشاب . قال :

« إن الأكمام التى مزقها المسيو جون إنما أهدته إياها من زمن قريب إحدى سيدات هذه المدينة . وقد تعلم أن خطبة المسيو جون عقدت في بلده على فتاة يحبها ، وهى بهذا الحب وبأكثر منه جديرة ، والخطاب الذى تلوته هو من أم الفتاة . وسأترجم لك الموضوع الذى أدت تلاوته إلى ما رأيت من إتلاف : « إن لوسى لا تترك أكمام لورد جون . وقد جاءت بالأمس مس بتي بولدهام وأمضت ساعة العصر معها وأرادت بكل ما فيها من قوة أن تعمل فيما تعمل لوسى فيه . ولا عرفت أن لوسى قامت مبكرة هذا الصباح فوق عاداتها أردت أن أرى ما تصنع فوجدتها مشغولة بنقص ما صنعه مس بتي بالأمس . ذلك بأنها لا تريد أن يكون في هديتها غرزة واحدة من يد غير يدها » .

وإني وإن وافقت روسو على هذه الملاحظة إلا أنني لست في الحق أدرى إذا كان هذا الحب المتلهب بنار الفراق هو الحب الواجب لسعادة الزواج .

فقد ذكر روسو في الهلويز أن الحب ليس عماد السعادة في الزواج ، كذلك فإن الفرقة والتخاطب يوحيان إلى كل من المحبين بما عليه صاحبه من حسن . فإذا رأى كل صاحبه بعد ذلك ورأى الحسن تخالطه صفات لم تكن بادية كان ثمت خطر الانقلاب . وما أتعس محبين استحال حبهما إلى نقيضه . أفلا يحسن إذن أن يكون التعارف بينهما تاماً وأن يطلع كل على كل صور نفس صاحبه وحالاته حتى يكونا فيما بعد بمأمن من كل طارئ .

كنت مسافراً من لوسرن بسويسرا إلى إيطاليا ، وكان معي في ديوان سكة الحديد شاب وفتاة في مقتبل العمر . وقد تحدثنا وسألت الشاب عما إذا كان هو وعروسه يقضيان شهر العسل . فابتسم وقال إن من عاداتهم في أمريكا أن يذهب الشاب ومخطوبته في سباحة طويلة قبل الزواج ثم يبتان بعدها في الأمر . وهم يسمون هذه السباحة سباحة التجربة . لأن السفر خير ما يدل على أخلاق الشخص وخير ما ينبئ عن ميوله . فإذا اتفق الخطيبان بعد سياحتهما اقترنا معاً وضمنا زواجاً سعيداً تزيد ذكرى تلك السباحة الطويلة سعادة بما تبعته إلى نفسيهما من صور وخيالات وأحلام وتأثرات مشتركة . وإلا انبتت الخطبة على خير ما يكون الوثام . . وقد قصصت هذه الحكاية على بعض من عرفت من الفرنسيين في باريس . فوافق على الفكرة وذكر أن سباحة شهر العسل بعد عقد الزواج كثيراً ما تبين عن أخلاق غير محمودة عند أحد الزوجين ، وكثيراً ما تكون بدء النزاع في حياة الزوجية . ولست أدري إذا كان روسو قد وقف على هذه العادة الأمريكية ، ولكنني على يقين من أنه لو وقف عليها لما أقرها ، لا لتطرفها في الحرية ، بل لأنها تعطي المرأة حق الحكم على الرجل . وهذا ما لا يرضاه لجنس أول واجباته عنده طاعة الرجل والخضوع له . ولما انقضى الوقت الذي رآه روسو لازماً لسياحات أميل عاد به إلى صوفيا .

واقترن الشاب بالفتاة . ومع ذلك ظل الأستاذ على مقربة منهما . « حتى إذا كان بعد أشهر دخل أميل إلى غرفتي وقال وهو يقبلني : هنيئاً فثاك يا أستاذ ، إنه يأمل التمتع بشرف الأبوة عما قريب ، ألا ما أكثر ما سيلقى على عاتقنا من صنوف العناية وما أشد احتياجنا إليك . وما أريد علم الله أن أدعك تقوم بتربية الابن بعد ما قمت بتربية أبيه . فما أريد أن يقوم غيري بهذا الواجب الحلو المقدس حتى لو أتيح لي أن أحسن الاختيار له بمقدار ما حسن الاختيار لي . لكن كن أنت

أستاذ الأساتذة الشبان . فانصح إلينا ووجهنا وسنكون طوع يدك . إني سأبقى في حاجة إليك ما عشت . وأنا اليوم أشد ما أكون لك احتياجاً أن ابتدأت أعمال الرجولة . أما أنت ، وقد قمت بما عليك ، فأرشدني لأسير على سننك ، واسترح فقد حان الوقت الذي يحق لك فيه أن تستريح .

هذه العبارة هي ختام كتاب التربية . وقد أثرنا ألا نذكر من الكتاب الخامس الذي أفرده روسو لتربية الفتاة إلا ما خص أميل وسنطرح أمام نظر القارئ بعض ملاحظات على طريقة التربية التي اتبعها روسو مع فتاه ثم نعود إلى تربية الفتاة ورأى روسو فيها .

* * *

بعد ثمانى سنوات من نشر أميل كتب أحد المهذبين إلى روسو يقول له إنه اتبع طريقته في التربية مع تلميذ له فرد عليه روسو يقول : « لئن صح أنك أخذت بالخطة التي جاهذت لرسمها في أميل فما أشد إعجابي بهمتك فإن عظيم ذكائك يدلك على أن هذه الطريقة يجب الأخذ بها كلها أو تركها كلها ، وإن خيراً ألف مرة أن تأخذ بطرائق التربية المعروفة فتصوغ فرداً كالأفراد من أن تأخذ ببعض هذه الطريقة فلا تصوغ إلا رجلاً خائباً . . وأنت من غير شك لا تجهل المجهود العظيم الذى تكفلت به . فأنت مدى عشر سنوات صفر بالنسبة لنفسك ، مسلم كلك بكل مواهبك إلى تلميذك . فالعناية والصبر والثبات هي الصفات الثلاث التي لا تستطيع أن تتخلى لحظة عنها من غير أن تتعرض لخطر إضاعة مجهودك كله إضاعة تامة . ولحظة قلق أو إهمال أو نسيان كافية لتتزع منك ثمرة عملك مدى عشر سنوات ثم لا يكون لك أن تسترد ما فقدته ولو أجهدت نفسك عشر سنوات أخرى . ولعمري لو أن شيئاً استحق صفة البطولة والعظمة بين أعمال الرجال فذلك نجاح مثل ما أقدمت عليه . ذلك بأن قيمة النجاح تتناسب دائماً مع ما أنفق للحصول عليها من مواهب وفضائل . . » .

قال فاجيه : « لن يستطيع الإنسان أن يعبر بأحسن من هذا عن أن الطريقة صناعية بحته لا تقوم إلا كما تقوم قصور الوهم وهي من سهولة الفساد بحيث لا يمكن اعتبارها إلا نصوراً جنونياً ورواية وهمية » .

ما نشك في أن هذا النقد صحيح في مجموعه . فأين نعثر على هذا المهذب

المتفاني في إخلاصه ، والبالغ من الفضيلة والطهارة أقصى الحدود ، حتى ليقتصر جهوده عشر سنوات بل عشرين سنة متوالية على تربية طفل واحد . وهل يستطيع هذا الأستاذ مهما بلغ من حذقه ومهارته أن يغير من طبع الطفل أو أن يحجب الموجودات عن أن تؤثر فيه على غير ما تؤثر في سواد وعلى غير ما تؤثر في الأستاذ نفسه . ألم نر أخوين شقيقين بل ألم نر توأمين أحياناً يسلكان في التربية والتعليم سبيلاً واحدة ثم تختلف نتيجة التربية عند أحدهما عن نتائجها عند الآخر ، فكيف بك تنتظر النتيجة التي قدرها روسو لكل تلاميذ روسو مهما اختلفت وراثتهم وطبائعهم وميولهم . كيف تنتج عند النبيه ما تنتج عند البلبد وكيف تنتج عند العصبي ما تنتج عند اللمفاوى . ما هو هذا الامتياز السحري الذي يجعلها تسوى بين طبائع البشر وقد أبدعت الطبيعة بينها من صور الاختلاف والتفاوت ما يقصر العقل عن تصور مداد .

ما نشك كذلك في أن طريقة روسو تحوى شتى المتناقضات . فهو يزعم أنه يخل بين الطفل والطبيعة مدى سنى التربية السلبية . وقد رأينا أن ما يلجأ إليه من الوسائل الصناعية يجعل هذه التخلية وهما من الأوهام كما يجعل تربيته أبعد عن الطبيعة من كل تربية سواها . وما ندرى بعد ذلك سبباً لفضل وسيلته على غيرها من الوسائل المتبعة عند الطبقات الراقية في البلاد المتمدنة وبخاصة في إنجلترا ؟ ثم لا ندرى بعد ذلك ما الجديد فيما كتبه ولم يسبقه إليه مونتني أو الفيلسوف الإنجليزي لوك (١) إلا أن تكون صيغة الكتابة وتعاليم قسيس السافوا وإلا قلب بعض الأفكار قلباً روائياً مدهشاً .

قال فيلمن : « لن ينكر أحد على روسو بلاغته ودقة تحقيقاته عن الطفولة الأولى . لكنه كان أقل نجاحاً في كلامه عما بعد الطفولة . وهو برغم تكراره : انظر كيف يفوق تلميذى تلاميذكم - لا يبين للقارئ ما بين نتيجته والوسائل التي أدت إليها من صلة . صحيح أن ما يعود روسو عليه تلميذه من كثرة الرياضة بالغ في الحسن . لكننا لا نرى بعد ذلك كيف حصل التلميذ على ما يدعيه روسو له من صفات وأخلاق . والحق أن المؤلف يتقص الطرائق المتعارفة بأحسن مما يثبت

(١) راجع كتاب التربية لسبنسر ورتقدم الإنجليز السكونيين لدمولان .

به صلاحية طريقته . فهل ترى هذه الطريقة مؤدية حتماً بالتليد ليكتشف العلم بدل أن يتعلمه . هذه فكرة ليست مفيدة وهي غير ممكنة . وأنت لا تفتأ ترى الأستاذ يوسوس إلى تليده بالدرس بعد ما يهيوه له . فمن نزهة يضل فيها الطفل لعدم معرفته وجهة السير إلى حديث البستاني ألبير عن التملك .

لست أرى حقاً كيف حصل تلميذ روسو على ما يدعيه أستاذه من صفات له وأخلاق . بل لقد نكون في حل من الشك في نجاح طريقة روسو في غير موضع من مواضعها . فكيف يكون التلميذ المسلوب الإرادة إلى الخامسة والعشرين من عمره ذا إرادة قوية بعد هذه السن . وكيف يعيش الحرية من بقاء مقيداً بمهذه من أول أيامه لا يرى إلا بعينه ولا يسمع إلا بأذنه ولا يفكر إلا بعقله ولا يتصور إلا بخياله . ألا تراه متى خرج بعد ذلك إلى ميدان الحياة وفاجأته شذائدها وغواياتها كان أبعد إغالا في المضلل عمن سواه . فإذا هو اتصل بأحد أولئك العصامين الذين عصرتهم الكوارث من نعومة أظفارهم فخرجوا من بين مخالبا صلباًعودهم قوية شكيمتهم استسلم له وألقى إليه مقاليد قياده وضل في الحياة سعيه وكان من الخاسرين .

شرع روسو بعد نشر الأميل في تأليف رواية أسمها (أميل وصوفيا أو المعتزلين) ولم يتنها . على أن ما ظهر منها يدل على شك منه كبير في تفوق طريقته في التربية على الطرائق المتبعة . فقد تزوج أميل من صوفيا وأولدها غلاماً وعاشا زمناً في الريف بين مناظر الطبيعة الساذجة ، ثم انتقلا إلى باريس وخالطا جمعياتها وامتزجا بأهلها . وبعد زمن أت الزوج على زوجها أن يقربها ، وظلت كذلك شهوراً تقلب هو فيها على أشواك الحيرة . ثم ألح على زوجته في المسألة فقالت له : « تنح يا أميل عني فقد نجس سواك فراشك وتركني حاملاً . وما كنت لتقربني بعد ذلك ما عشت . . فقر أميل مثقلاً باليأس وظل في يأسه زمناً حتى إذا ذكر دروس أستاذه طابت نفسه والتمس للزانية عذراً ، وأعجب منها بما بقي لها من فضيلة الصراحة بعد الكبوة فغفر لها ، ولكنه أخذ فتاه وارتحل حتى نزل عند نجار اشتغل معه آملاً تخفيف آلامه بكد نفسه وإجهاد قواه . لكن الأم لم تقدر على مفارقة ابنها . فسارت حتى إذا بلغت باب المصنع نادى بصوت مستعير وهي تنظر إلى ابنها الثاني : « كلا إنه لن يسلبك أمك . فتعال نبتعد فليس لنا هنا مستقر » .

عند ذلك ترك أميل لها غلامه وهاجر إلى الجزائر فأخذ الوالى عبداً ثم أدناه منه وكرم مجلسه .

قال حول لمر : « هنا تقف الرواية فנסائل أنفسنا : ماذا أفاد أميل من تربيته الخاصة إذا كان قد عاش عيش سواه بعد ما جاء إلى باريس » . وإنما ينكر روسو غرائب طريقته بعد ما وضعها كما أنكر من قبل غرائب خطايه عن العلوم وعن التفاوت ، وهو يخفف من الحدة التي ظهرت في كتابه ضد طرائق التربية المتعارفة كما خفف من حدته ضد المناظر بعد إذ نشر خطاه لدالمير عن المناظر .

ولم يكن لروسو في الحقيقة بد من هذا الإنكار والتخفيف فقد كان يعلو غلواً غير معقول أول ما تختسر فكرة في رأسه . فإذا واجهه الناس بمعقولهم ومعروفهم ارتبك ولم ينجح من ريبته إلا نظام التقهقر أبدع فيه وبرع حتى كان الناس يظنونه في تقهقره منتصراً .

لكنه كان يترك بعض الأفكار الغريبة العزيزة عليه تمر من غير أن يمسها في أثناء تقهقره بسوء . ففكرته في أن يبدع الطفل العلم من غير أن يتعلمه ليست أقل أفكاره غريبة ، وهو مع ذلك بها مدله وعليها حفيظ . وكأنما يريد بكل إنسان أن يبدأ جهود القرون الماضية ليكشف ما كشف الجدود من أسرار الوجود . ويديهي أن هذه الأسرار لم تسلم مفاتها إلا بعد أن أخذت عنوة وبعد ما تجندل تحت أسوارها ألوف الشعراء والفلاسفة والكتاب والعلماء المنقيين . فكيف يذرهما روسو تغلق أبوابها من جديد دون فتاه قانعاً بأن يوسوس له منها بشيء من صور النجوم وظاهرات الطبيعة .

لا يريد روسو أن يجيب عن هذا الاعتراض إلا بما أجاب على ما وجه لخطاب العلوم والفنون من الاعتراضات . وهو بعد ما كتب أميل لا يزال يرى أن السعادة الخالدة في أحضان الطبيعة لا تحوجها العلوم بل هي نقص من أطرافها . وإذا لم يكن من هذه العلوم بد فقليلها يكفي ، أما الفنون فلا .

وأغرب الأفكار العزيزة على روسو فكرته الأساسية . فهو يزعم أن الإنسان طيب بطبعه . وهو يرتب على هذه الطيبة كل نظامه في التربية . يكفي عنده ألا تدع موضعاً ينفذ منه الشر إلى نفس الطفل لتنجوبه ولتكون قد كونت رجلاً طيباً .

قال قاسم أمين : « يولد الإنسان شريراً خبيثاً قاسياً محتالاً كذوباً . الولد الصغير لا يعرف إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يألم إلا من نفسه وفيه أثرة هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل وتبقى فيه حتى يصل إلى سن الرجال فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم ما تنتجه التربية الجيدة إذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها » .

استغرق النظر فيما إذا كان الإنسان طيباً بطبعه أو خبيثاً بطبعه جهوداً لا تقل عن الجهود التي أنفقت في بحث الخير والشر ومصدرهما ومآلها . وأثار بحث المسألة من الجدل ما أثار بحث غيرها من المطلقات التجريدية الأخرى . وعندنا أن كل هذا البحث والجدل عقيم . وليس الإنسان طيباً بطبعه وهو ليس خبيثاً بطبعه . وإنما هو ذرة في دائرة الوجود قضى عليها بالحياة الإنسانية ولا تعلم لهذا القضاء سبباً ولا تفهم للحياة غاية ولا تدرك للوجود غرضاً . وهي تعيش حتماً في انتظام مع غيرها من ذرات الوجود . وكلما زاد انتظامها طابت حياتها . ولذلك كنا نعتبر خير حالات الحياة وأسعدها أكثرها مع حياة مجموع الوجود انتظاماً وأكثرها لها ملاءمة . . صحيح أنا لم نعرف بعد ، وقد لا نعرف أبداً ، ما يجب علينا لكمال الانتظام حتى نبليغ كمال السعادة . ونحن لا نزال ندأب وراء هذه الغاية بالاستفادة مما يكشف العلم عن صلوات الأشياء بعضها ببعض وعن صلتنا بالأشياء وباستيحاء إلهامنا الغريزي الناشئ من شعورنا بأثر الأشياء فينا وأثرنا فيها شعوراً لما نعرف مظاهره وأسبابه . فإذا أمكن حصول هذا الانتظام ، وقدر أنه حصل ، يومئذ نكون قد بلغنا غاية التقدم ويومئذ تسرد الإنسانية الفردوس المفقود .

لكننا ولما نصل من التقدم لشيء إلا أن يكون سراياً لا نعرف له وجوداً فإن الخير والشر والحسن والقبح والطيبة والخبث وما إليها من أشباهها لا تزال في حيز المطلقات التجريدية . كل ما عندنا من علم بها ليس إلا حدساً وضعناه على قدر معارفنا الناقصة الضيقة الدائرة ووضعناه بمقدار اقتضته ضرورات الحياة وظروف العيش . قد يكون هذا المقدار النسبي قريباً من الحقيقة المطلقة - إن كان للحقيقة المطلقة وجود - وقد يكون بعيداً عنها ، بل على التقيض منها . ذلك أمر لا نعلمه ولا يستطيع أحد أن يقطع فيه برأى .

من ثم كان بناء التربية على تقدير الطيبة الطبيعية أو الخبث الطبيعي بناء واهن الأساس . وإنما التربية تهينة الناشئ للعيش في الوسط المحيط به عيشاً يقربه من فكرتنا في السعادة قدر المستطاع . ولما كانت هذه الفكرة مستفادة من العلم بالوجود الخارجى علماً قائماً على الملاحظة والاستقصاء ، ومن الإلهام النفساني فيما لم يحكمه العلم بعد ، فوجب أن نطرح الصور المادية التي كشفت قواعد العلم عنها للإنسانية أمام حس الطفل كي تدخل في دائرة معارفة وكي يكون إلهامه النفساني أقرب إلى مظنة الصواب فيكون هو أقرب إلى السعادة .

سهل بعد ذلك أن يشعر الطفل بأن كثيراً مما يقع تحت حسه إنما كان من عمل الإنسان . وأن مثل هذا الكثير مثل الشجرة الكبيرة يتمتع هو بثمرها وإن كان فضل غرسها لغيره . وسهل كذلك أن يتصور ما أنفق لتحقيق هذه الغاية من الجهود على عمر الأجيال . فإذا هو شعر بذلك وتصوره ، قدر ما للإنسانية عليه من فضل ، وشعر بأنه مدين للماضي بسعادته وطمأنينته في الحاضر . ورأى أن أداء هذا الدين الواجب الأداء إنما يكون بمواصلة جهود الماضي لتقريب الإنسانية من تمام الانتظام في مجموع العوالم كي تتحقق غايتها وتتم لها السعادة . من هنا تنشأ فكرة الواجب . وليس الواجب إلا أداء ما تراه ديناً عليك . وقد ذكر أميل فاجيه أن روسو لم يلهم فتاة هذه الفكرة ولم يرب في نفسه إرادة الوفاء . وقد يكون هذا صحيحاً . قد يكون صحيحاً أن روسو لم يقو إرادة فتاة إطلاقاً وإنه لم يشعر بما للماضي عليه من فضل ودين واجب الوفاء . لكن لروسو عذره . فهو يعتبر جهود الماضي جهوداً ضالة أفسدت الإنسانية ونشرت الشقاء ومكنت للتعمس . وهو يرى في السكون إلى الطبيعة والركون إلى الطمأنينة الخالدة وسيلة السعادة . وهو يرى أن تقوم الفضيلة على أساس من الإشفاق والرحمة بالإنسانية المعذبة الدائمة الأنين .

قال : إنما يتكون الجنس الإنساني من سواد الناس . أما ما ليس سواداً فهو من القلة بما لا يحرك العناية لحسابه . . ولو أن الغني كان أكثر من الفقير شقوة وتعمساً لما دعا ذلك للإشفاق عليه . وإنما تعسه من عمله وسعادته في يده . لكن شقوة البائس من عمل الأشياء ومن قسوة الحظ الذي يثقل كاهله . ولا سبيل لنزع إحساسه المادي بالتعب والهمود والجوع . ولا تجدى الحكمة ولا يجدى الذكاء

لإقالتة من هموم مركزه . . احترام جنسك واذكر أن أساس تكوينه مجاميع السواد وأنتك إذا نزعته منه الملوك والفلاسفة فلن يكون لانتزاعهم أثر ولن يتأثر سير الوجود . وبالجملة علم فتاك حب الناس جميعاً وألا يكون من طبقاتهم في واحدة منها بل فيها جميعاً . وحديثه عن النوع الإنساني بمحبة وإشفاق . وإياك ولفظ التحقير . فما كان للإنسان أن يثلثه شرف الإنسان .

ظاهر هنا أن روسو جعل الرحمة والمحبة أساس الخلق . وظاهر أنه أوحى للأستاذ بأن يلهمها فتاه على أنها بعض مظاهر الوجود الطبيعية ، لا على أنها قواعد تواضع الناس عليها ، وذلك لكي تنغرس في نفسه كما تنغرس صور الموجودات المادية التي تقع تحت حسه . ومتى انغرس أنتجت بعد ذلك كل ثمرها حتماً . ومن ثمارها فكرة الواجب على معنى خاص . فإذا لاحظنا مع فاجيه أن فكرة الواجب طبيعية في الإنسان كان هذا المعنى الخاص توجيهاً لها إلى وجهة قد لا تتفق مع رأى نيتشه Neitche من وجوب تطبيق مبدأ تنازع البقاء على أقصى صورة في الجماعة الإنسانية ، ولكنها من غير شك تتفق مع النظرية المسيحية نظرية التفاني والإخاء . وما كان لنا مع ما نعلم من شدة إخلاص روسو للمسيحية برغم نفيه النبوة والرسالة أن نطالبه بالأخذ بنظرية غير نظريتها .

وما دام روسو قد أقام أساس الخلق على الرحمة والمحبة فمن الخطأ كذلك رمية بأنه أراد لطفله أن يبقى جاهلاً بقواعد الخلق حتى الثامنة عشرة من عمره . وهو إنما أراد أن يأخذ الطفل بهذه الظواهر على أنها وسائل الحياة العملية من غير اضطراب للمقاربة بينها ومقارنتها واستنباط القواعد منها حتى لا يكره ذهنه الضعيف على النظر فيما لا يطيق هضمه . فإن الذهن كسائر الأعضاء وكل المعدة إذا أهمل فسد ، فإذا أعطى بمقدار حاجته قوى وطلب المزيد . أما إن أرهقته أثقلتته التخممة وقل أن يعود إلى شيء من الصلاح . ومقدار حاجة ذهن الناشئ مشاهدة الأشياء وظواهرها ، فإذا هو أحاط بكل منها منفرداً جد في مقارنتها . فإذا أبدت له المقارنة أوجه الشبه وصور الخلاف بينها فكر في الاستفادة من هذه الوجوه والصور لوضع قواعد يصدر عنها . وقد لا تستقل هذه العملية الذهنية عن سائرها إبان التدرج من الصغر إلى الشباب . لكنها على كل حال تحتاج إلى المعونة على هذا الترتيب . ففرض المشاهدات ، ثم تقريب المتوافق والمتخالف ، وأخيراً الإعانة

على استنباط القواعد . وهذا ما فعله روسو حين وضع فكرة التربية السلبية ثم الإلهام ثم الحوار والجدل .

وليس يصح للشباب بحث نظام قواعد السير في الحياة إلا في الحال الأخيرة من حالات التربية . ذلك بأنها نتائج المشاهدات والمقارنات استنبطها الذهن بعد بحث وتمحيص ، والبحث والتسحيص لا يكونان إلا بعد أن تكمل للذهن قوته . ولو أنك وضعت أمام الذهن هذه القواعد على إطلاقها ولا يتم نصحه إذن لكنت كمن يثقل معدة الرضيع بالغذاء الدسم يريد به أن يسرع إلى النمو فلا يكون من وراء عمله إلا تخمة الطفل تخمة قد تودي بحياته . وما نشك في أن البله العام الذي يصيب أكثر طبقات الإنسانية إنما سببه ما ألقى على أذهان أهلها ولا تزال فجوة ضعيفة من أحمال لا طاقة لها بها . لذلك أصابها الهزال برغم استمرار نمو الجسم وصرت ترى رؤوساً كأنها رؤوس الرجال تعمرها أذهان لا تريد قوتها على أذهان الأطفال . وهذا هو ما حدا بروسو لترك الفلسفة والدين وقواعد الخلق جانباً لا يلقى بشيء منها إلى فتاة قبل السادسة أو الثامنة عشرة من العمر . تلك كلها مضاربات نظرية اقتضى الوصول إليها جهاد أصحاب الأذهان الناضجة والنبوغ العقلي مدى أجيال كثيرة . وهم لم يصلوا إليها إلا بعد أن كشفوا من دقائق مخبات الأشياء عما لا يقع تحت حس الطفل . فإلقاء هذه النظريات والدقائق إليه يفسد ذهنه بل يتلفه .

ولما كانت حاجة الطفل لمشاهدة الأشياء هي الحاجة الماسة في المدة الأولى من طفولته ، ثم لما كانت حاجته لمقارنتها هي الحاجة الماسة بعد ذلك مباشرة ، فإن إضاعة وقت الطفل في قراءة الكتب صرف له عما يعوزه . إنما تحتوى الكتب صور الأشياء لا حقائقها . وتحتوى منها وجهاً خاصاً قد يكون أقل وجوهاً استلفتاً لنظر الطفل . وفي قصر الطفل على الصور دون الحقائق خطر كبير . فإن مشاهدة الأشياء على حقيقتها تبعث في النفس نشاطاً لاستجلاء هذه الحقيقة . كما أن المقام بين الصور يجعل الطفل ينمو خيالياً محباً للأوهام متطلعاً إلى ما يرسمه له ذهنه على الورق لا إلى ما تمليه عليه الموجودات من صور الواقع . والحياة واقع لا خيال وحقيقة لا وهم فالتعلق بالخيال والوهم ليس يصلح للحياة . لكن ترك الطفل يشاهد الأشياء زماً ثم يقارنها زمناً آخر ثم يستنبط القواعد

والأحكام منها بعد أن تكون عنده ملكة التفكير يحتاج إلى وقت طويل قد لا يتسنى للكثرة المطلقة من الناس الذين يضطرون لكسب حياتهم . هذا اعتراض يوجه إلى مذهب روسو . وهو اعتراض وجيه لا على التربية كمذهب ولكن على التربية كوسيلة لكسب العيش . قال فاجيه : « إذا كان مرمى التربية سرعة كسب وسيلة للعيش كما هو الحال حتماً وضرورة لأغليتنا العظمى ، فيجب أن تكون التربية عملية أو إن شئت مادية إلى درجة أكبر . وليس معنى ذلك أن هذه التربية العملية هي التربية الصحيحة أو التربية الحسنة . تلك تربية سيئة بل هي ليست تربية إطلاقاً . إنما هي مران يخلق العامل المتقن ولا يجعل الطفل رجلاً . وما دامت الحالة الاستثنائية الطيبة التي اختارها روسو تجعل الطفل غير محتاج لكسب العيش فيكفي أن يحتاط له بتعليمه حرفة يدوية يستطيع الكسب من طريقها إذا ساء حظه . أما ما خلا ذلك فترية عامة كلها تثقيف الذهن ورياضة العقل ونماء حسن التقدير ورفعة القلب - وأن يكون وسيلة ذلك : الحديث الطويل الجدل الدقيق مدى عشرين سنة مع حكيم تعينه كتب قليلة . وتلك هي التربية الصحيحة ، فليس العلم غرضها وإنما غرضها تفتق الذكاء . يسير عليك بعد ذلك أن تحصل ما تحتاج إليه أو تشتهي من علم وأن تحصله سريعاً . صحيح أن هذه التربية لا تؤهلنا لنضال العيش . لكن أصحاب هذا النضال لم يكونوا موضع تفكير روسو » (١) .

ظاهر من كل ما سبق أن مذهب روسو في التربية مذهب غير ممكن تطبيقه . وظاهر أن في كتاب التربية آراء تستحق النقد وأخرى خاطئة الخطأ كله . وظاهر كذلك أن مجموع فكرة روسو في التربية بديع عظيم وأن الكتاب يحتوي من الأفكار ما جعل المسيو مارتن يكتب عنه فيقول : « برغم ما أثارت بعض أجزاء أميل من اعتراضات عليه فالكتاب يكاد يكون أعمق بحث وحد في لغتنا وفي غيرها من الكتب الحديثة عن الطبيعة الإنسانية . وهو قطعاً أكثر الكتب دفعاً للتفكير فيما لا يكون تفكير المؤلف فيه صواباً . وإنك لنى حل من أن تقول غير مبالغ إن هذا الكتاب كان سفين سلام ألقى بها القدر على أمواج مذاهب التشكك والمادية وإنه جمع بين دفتيه كل العواطف والمبادئ الأساسية للحياة الأخلاقية التي

كانت على شفا الهاوية . وليتصور الإنسان القرن الثامن عشر خلواً من روسو ثم
 ليسانل جاداً مخلصاً أيان كان ينتهى سير العقل الإنسانى » .

هذا المقام الكبير الذى اعترف به الكتاب جميعاً لكتاب روسو وتلك الأفكار
 الجمّة التى قررت حقوق الطفل كما قرر العقد الاجتماعى حقوق الإنسان هو الذى
 أدى بنا لتفيض فى عرض الكتاب كل هذه الإفاضة . ولو أن روسو كان دقيقاً
 فى شأن المرأة دقته فى شأن الرجل كريماً معها كرمه مع أمثاله لعرضنا قسم أميل
 الأخير مع ما سبق عرضه . لكن روسو كان خصماً لحرية النساء لأنه كان شديد
 الولع بهن . وخصومته تدعونا لأن نفرد الفصل الآتى للكلام عن الكتاب الخامس
 من التربية (حُوفيا أو المرأة) .

٣

استأثر الرجال كبراً وغروراً بحق الحكم على كل شيء . والمرأة بعض الأشياء التي استخضعوها لحكمهم . فما لها من حق وما عليها من واجب رهن أمرهم وطوع إشارتهم . وقد بالغوا في ذلك حتى بلغوا في بعض العصور أن جعلوا حياتها وحريتها بيد بنينا بل بيد موالها . وكانوا ولا يزالون في بعض الأحيان يدفنونها حية مع زوجها الميت . وهي لم تصل بعد إلى التمتع بكل الحقوق التي يتمتع بها الرجل قانوناً وفعلًا في أى بلد من البلاد . ومن يدري إذا كانت ستصل إلى هذا المقام يوماً من الأيام .

لم هذا ؟ لأن الرجل قوى الساعد والمرأة ضعيفته . وللقوة بحكم الطبيعة حق لا يمكن إنكاره . واستعمال حق القوة يتكيف حسب الأزمنة والأمكنة بصور مختلفة : فحيث الرجل معرض لفتك الأقوى تراه يفتك بالأضعف . وحيث تحول حيلة الرجل دون فتك غيره به تراه يجعل للحيلة حقاً يقف دون الفتك . ولو ملكت المرأة يوماً من وسائل الحيلة ما يعجز الرجل عن كشفه لخضع الرجل لسلطانها ولأقر لها بحق التحكم فيه .

لكن الرجل في حاجة إلى المرأة . لذلك كان يرعى مع استبداده بها حرمانها غير قليلة . وكان يرعى جانب الرأفة واللفظ ليصل منها إلى غاياته . كذلك فالمرأة أم الرجل وأخته وزوجه ومحبوبته والرجل أبو المرأة وأخوها وزوجها وحبيبها . وهذه صلات تمنع عليه أن يقسو بها إلى الحد الذي يقسو عنده القوى بخصمه الضعيف ، وتقضى عليه حملاً أن يرتب علاقاته معها ترتيباً يضمن لكل منهما سعادة متبادلة من غير أن ينزل القوى عن عرش قوته .

وقد كانت المرأة ولا تزال ترى من الرجال هذا الاستئثار بالحكم ، وكانت ولا تزال تسخر منهم لما هم فيه من باطل الغرور وما هم عليه من كاذب الكبرياء . وهي تسخر منهم لأنها تشعر من جانبها بأن قوتها أبعد من قوتهم أثراً وإن كانت أقل ظهوراً . قوتهم كقوة الحيوان الضخم يجر العربة وهو كلما ثقل حملها اشتد

بنفسه اعتزازاً وإن كان أكثر أمام عربته اهتزازاً . وقوتها كقوة الكهرباء لا تقع عليها العين وهي تهر العوالم وتلك الرواسي وترزعج الآلهة .

ولم يفت الرجال على عظيم تبلدهم أن يشعروا بهذه القوة . وقد خيل إليهم لما أرادوا التخلص منها أن القمع والقصر يخفف من آثارها ، فألزموا المرأة عقر دارها ومنعوها من الاختلاط بالعالم مخافة أن يزيد هذا الاختلاط في سلطاتها ، وجسبوا عنها ما كشفوا من قوى الوجود لتبقى ضعيفة بجهلها . فلم يغن ذلك عما أرادوا شيئاً . إذ رضيت المرأة بالنصيب الذي قدره لها مقابل أن استخضعتهم لحاجاتها واستندلتهم لشهواتها وجعلت منهم مطى رغائبها وأهوائها . وكذلك كان الفوز في هذا النزال القديم الخالد بين المتحابين المتنافسين لسلطان المرأة الرقيق .

على أن شيئاً من النور قد بدأ يدخل إلى عقول الرجال المتبلدة ، فبدءوا يشعرون بأنهم يزيدون في سلطاتهم على المرأة إذا هم تركوها تصادم الوجود وتحتال لنفسها على اتقاء قسوة صدماته . ولما كانت المرأة هي ابنة الرجل قبل أن تكون امرأة ذات وجود مستقل ، فقد فكروا في إعدادها لهذا الصدام كما يعد الرجل ، حتى إذا خرجت إلى الصدام فلم تكف نظراتها وبسماتها ودلالها ورقتها لتلين من جلمود قلب الوجود ورأت ألا مفر من الاستعانة بالرجل الغليظ ليشدد من لينها ويقوى من ضعفها أدركت ما له عليها من يد وجميل وراعت القصد فيما كانت تعتته من قبل فيه من حاجاتها وشهواتها ورغائبها وأهوائها .

وبين هذين الموقفين - موقف القصر في عقر الدار وموقف جلاد الوجود - كانت المرأة ولا تزال تتردد .

وأشد الرجال عسفاً بالنساء وأكثرهم حرصاً على إخضاعهن هم أشدهم تعلقاً بهن وأحناهم ضلوعاً عليهن . هؤلاء العشاق للجنس يرون المرأة كالزهرة إن عرضتها للافح الهجير أو قارص الزمهرير ذبلت وزال جمالها . وهم يرونها كالغزال إن قوى أستاذ فزال عنه ما جعل لهم عليه السلطان . وهم يشعرون توهماً ما لها من ذكاء وحيلة فيخشون أن تنقلب الحيلة سياسة توجه بها المرأة الرجل حيث تشاء . وهم يرون لذلك إمكان زوال ملكهم وهم أحرص من أن يرضوا زواله .

وقد رأى القارئ مبلغ تعلق روسو بالنساء وهيامه بهن هياماً دفعه إلى أعمال

الجنون في شببته وفضح مستور حياته في رجولته . فلا بدع إذن أن يكون رأيه في تربية النساء فألا فاضحاً في جنونه . هذا مع الاعتراف بأن للجنون منطقاً لا يقل عن منطق العقل دقة ، وبأن في اندفاعات الجنون إلهامات حق لا يصل إليها منطق العقلاء .

يقول أميل فاجيه ردّاً على اعتراض الذين يذهبون إلى عدم جواز تعليم المرأة إلى حد تتساوى عنده مع الرجل أو تفوقه فيه : (لن يكون تعليمها كذلك شراً بل يكون هو عين الحكمة . فإنما يكنى الرجل أن يتقن حرفة للكسب وأن يحسن أدائها وأن يعمل على حد قول الأمريكيين - لكسب المال لامرأته : أما المرأة فمدبرة للمنزل ، عليها واجب ألا تسرف في المال . وذلك أشق كثيراً من كسب المال . وهي زوج يجب عليها ألا تضايق زوجها وأن تعمل الذهن لتنشيطه وتشجيعه وأن تقدم له النصيحة الطيبة التي لا يعنى سواها بتقدمها وأن تنجيه من ملال الحرفة بما تتبادله معه من حديث ذكي طريف إن لم يجده في بيته ذهب إلى النوادي باحثاً عنه فيها . وهي أم مكلفة بأن تدخل إلى نفس أبنائها الأفكار العامة الأولى ذات الأثر الدائم مدى الحياة . فهي من أجل ذلك ولتحسن صنعا يجب أن تكون أذكى بكثير من الرجل وأن تصل من العلم إلى استغلال كل ما يحتويه هذا الذكاء وكل ما كان ممكناً أن يؤديه) .

هذه الكلمة من أميل فاجيه نقدمها ليرى القارئ إلى أى حد يريد أكابر الكتاب أن تصل المرأة . وهي كلمة كتبت في سنة ١٩٠٩ أى قبل نشوب الحرب العالمية بخمس سنوات . أما بعد إذ رأى العالم ما قدم النساء من جليل الخدم للإنسانية في حرب دامت رحاها دائرة مدى سنوات أربع بلا انقطاع ولا هدنة ولا ملال فقد أصبحت كلمة فاجيه أكثر من أن توصف بالاعتدال واعترفت الأمم للنساء بحق التقدم حتى في السياسة إلى مصاف الرجال .

لكن روسو يرى ذلك هدراً وهزواً . إن المرأة لم تخلق للعلم ولا للحكمة ولا للتفكير ولا للفن ولا للسياسة . وإنما خلقت لتكون أمّاً تغلو أطفالها بلبنها وتتعهد ضعفهم بحسن عنايتها وتسلمهم من بعد ذلك للأب أو للمرنى يعنى بهم على نحو ما توحى به الطبيعة . وترجع هي للقيام بوظيفة الأمومة فتضع وترضع وتتعهد لتعود فتضع وترضع وتتعهد من جديد . وهي وأطفالها دائماً في عنق الرجل يقوم

عليهم ويكد لهم ويربيهم ويهيؤهم للحياة بحسب الإلهام الطبيعي .
إذن فالعانس والأرملة ومن نكبت بزواج آخر : كل أولئك لا يدخلن
في حساب روسو . وربما كان جوابه إذا سئل عنهن إنهن خرجن على نظام الطبيعة
فلا مكان عنده لهن .

وما دامت الأمومة هي الوظيفة الطبيعية للمرأة ثم ما دامت في عناية الرجل
وقوامته . وما دامت الطبيعة قد جعلت بذلك بينهما من الفروق ما يجعل الكلام
في المساواة بينهما سخافة مضحكة . ما دام ذلك « فإن المرأة الكاملة والرجل
الكامل لا ينبغي أن تتشابه أذهانهما إلا كما تتشابه وجوههما .

« والجنسان في اجتماعهما يعملان للغرض المشترك ولكن لا على طريقة واحدة .
ومن هذا الخلاف ينشأ الفرق الأول المميز للعلاقات الخلقية بين واحد الجنسين
والآخر . فيجب أن يكون أحدهما ناشطاً قوياً والآخر مستسلماً ضعيفاً كما يجب
أن يريد أحدهما ويقدر على حين يكتفى الآخر بعض الشيء من المقاومة .

« ومنى استقر المبدأ ترتب عليه أن المرأة خلقت خصيصاً لتسر الرجل فإذا
وجب على الرجل أن يسرها بعد ذلك فتلك ضرورة أقل ظهوراً . وإنما فضل الرجل
في قدرته وهو إنما يسر المرأة بقوته » .

وما دام هذا الاختلاف الطبيعي قائماً فمن خطئ الرأي سلوك سبيل واحدة
في تربيتهما . إنما التربية تنمية الملكات الغريزية التي أوجدها القدر للملاءمة
الوجود . ووجود المرأة ليس هو وجود الرجل فملكاتهما الغريزية تختلف وإذن
فيجب أن ينمى في كل ما يعاونه على الحياة التي أعدها والتي تختلف جد الاختلاف
عن حياة الآخر .

« بل إن كل الملكات المشتركة بين الجنسين ليست موزعة بينهما على نسبة
واحدة . وهما في المجموع يتعاوضان . فالمرأة أحسن كامراً منها كرجل . وهي كلما
أرادت أن تتمتع بحقوقها كان لها الفضل . فإذا أرادت أن تغصب حقوقنا بقيت
دوننا . ولن يستطيع الإنسان أن يعترض هذه الحقيقة العامة إلا بمسئنيات يعتمد
عليها أصحاب المصلحة من أنصار الجنس الجميل » .

وإنك لترى مصداق ما تقدم فيما تلاحظه من ميول كل من الجنسين أول
ما يبدأ التمييز عندهما . فترى الفتاة ميالة للزينة تمضي كل نهارها حول عروستها .

تغير مئات المرات من ملابسها وتداب في البحث عن صور جديدة من زينتها سواء أكانت هذه الصور قبيحة أم حسنة . وهذه العناية التي تبذلها الفتاة في تجميل لعبتها ليست إلا مظهرًا لكمين ما في نفسها من ميل للزينة لا تستطيع رده على نفسها فتخلعه على تلك اللعبة التي تتصرف فيها . فإذا بلغت من العمر حداً يجعلها تقدر على تجميل نفسها رأيت عنايتها وقد انصرفت رويداً رويداً عن عروستها ورأيتها أنفقت كل ما أوتيت من ذكاء وجهد لنبدو في أجمل مظهر تمكنها الطبيعة من الظهور فيه .

وقد يسهل عليك بعد ذلك أن تستنتج ما تقدم من أن المرأة خلقت لمسرة الرجل ، كما ترى أن وجود المرأة خاضع لحكم الجماعة عليها لا لاعتبارات الخاصة ولا لآثارها الشخصية . فهي مهما وجدت في تجميل ذاتها من السخريّة ومن إضاعة الوقت لا تستطيع أن تهمل جمالها ، وإلا بدت في حال من الكآبة يحجها معها الناس جميعاً . وهي كلما أضافت إلى جمالها زاد الناس إعجاباً بها وتقديراً لها .

إلا أن وظيفة الأمومة هي الوظيفة الطبيعية للنساء جميعاً . وهي لا شك في حاجة إلى تجميل المرأة نفسها حتى يعنى بها الرجل الذي أعدته الطبيعة لها . ولكن ثمة إلى جانب كمال الجمال ما تحتاج إليه حياة الزوجية والأمومة من معارف . وإدارة البيت ليست بالأمر الهين لذاته . فيجب أن يعنى بصحة المرأة حتى تنشأ قوية على احتمال مشاق الأمومة كما يجب أن تتعلم ما تحتاج إليه تلك الإدارة من معلومات ومن صنائع . فإذا أتقنتها تعين عليها أن تعرف الموسيقى والرقص تسر بهما زوجها وتدخل بهما إلى بيتها من معاني النعمة ما لا غنى عنه .

لكن التعليم الذي يريده روسو للمرأة لا يتعدى درجات المعرفة الأولية البسيطة . لقد رأيت في تربية أميل يطن على الكتب وعلى العلوم وعلى الفنون ويريد فتاه شاباً قوى البناء سليم الجسم حسن الإدراك قديراً على معرفة الأشياء وحسن تقديرها من غير حاجة لدرس علم خاص أو التبحر في بحث شيء من الأشياء . وقد رأيت يعتبر المرأة مخلوقاً ضعيفاً مستسلماً وجد في الحياة متاعاً للهو الرجل ومسرته . وخلق ضعيف العقل كما خلق ضعيف البدن . فهو لن يرى بعد ذلك في تعليم المرأة إلا سخافة وسخريّة .

« يقولون : إنه لا يجدر بالرجل ذى التربية أن يتصل بامرأة لا تربية عندها . .
 إلا أن فتاة بسيطة فجة التربية لأحب إلى من فتاة عالمة ذات ذكاء وخاطر نجىء
 فتقيم فى بيتى سوق أدب تجلس هى على رأسه . فإنما الفتاة ذات الذكاء والخاطر
 وباء زوجها وأبنائها وأصدقائها وخدمها ووباء الناس جميعاً . ذلك بأنها وهى
 فى سماء نبوغها الرفيع تحتقر كل واجباتها كامرأة وتبدأ تريد أن تكون رجلاً .
 فينظر الناس إليها بعين الزرابة ويوجهون إليها مر النقد عن حق . ولن يسلم إنسان
 من النقد ما خرج عن الدائرة التى هى القدر له المكان فيها ليدخل إلى دائرة لم يتهيأ
 بها . وكل هاتيك النسوة ذوات الملكة والموهبة الكبيرة لا احترام لهن إلا عند الغفل
 البلهاء . فالناس يعرفون دائماً من هو الفنان أو الصديق الذى يمسك بالقلم
 أو بالريشة حينما يعملن . فإذا كان للمرأة مواهب حقة دنس غرورها مواهبها .
 فإنما كرامة المرأة أن تبقى مجهولة ومجدها فى احترام زوجها ومسررتها فى سعادة أسرتها .
 وإنى إليك أبها القارئ أحتكم . إذا أنت دخلت إلى غرفة امرأة فأى الأمرين
 أحسن عندك أثراً وأدعى بك لاحترامها . أن تراها عاكفة على أعمال جنسها معنية
 بأمور بيتها محاطة بملابس أبنائها أو أن تلقاها تكتب الشعر على منضدة زيتنها
 تحيطها كتب من كل الأنواع وتذاكر نقشت على كل لون ؟ ألا لو كان الناس
 جميعاً عقلاء لوجب أن تبقى كل فتاة متعلمة فتاة طول حياتها . »

وما للمرأة والعلم . « إن البحث وراء الحقائق المطلقة والنظرية ووراء
 قواعد العلم وكل ما يرجى لنشر الأفكار ليس من خصائص المرأة . إنما يجب
 أن تقتصر معلوماتها على ما يحتاج إليه العمل . وهى المكلفة بتطبيق ما يجده الرجل
 من المبادئ . أما خواطر النساء فيما لا يسر واجبهن فيجب أن تنصرف إلى معرفة
 الرجال أو إلى المعلومات الرقيقة التى تتعلق بالذوق وتقتصر عليه . وذلك بأن
 مظاهر النبوغ تتعدى مدى مراميهن ، وأن ليس لديهن من الدقة والانتباه ما يكفل
 النجاح فى العلوم الدقيقة . كذلك فإن المعارف الطبيعية أو المادية هى من متناول
 أكثر الجنسين عملاً وأكثرهما مراناً وأحوطهما بالأشياء نظراً وأشدّها قوة وأقدرهما لقوته
 استعمالاً يزن بها ما بين الكائنات المحسّة وقوانين الطبيعة من صلات وروابط . »

ليس للمرأة من العلم إذن فائدة . والمرأة مخلوق أوجده القدر للهو للرجال
 ومسرّاتهم فيجب لذلك أن تعنى بدرس الرجال . ويجب أن تفتن فيما يجلب للرجال

المسرة ويملق ذوقهم ويجب أن تنظر للأشياء وأن تتصل بها وأن تمارسها بمقدار ما يرضى الرجال - فإذا هي نجحت في ذلك فقد أدت الواجب الذى خلقت له . وأما إن هي تعدته وجعلت لنفسها شخصية مستقلة وأرادت أن تتصل بالعالم والكائنات عن غير طريق الرجال فقد ضلت سواء السبيل .

وماذا يرضى الرجال . إن الإجابة عن هذا السؤال غير ميسورة . لأن للرجال في كل زمان ومكان ميولهم وأذواقهم وشهواتهم . وقد وهبت الطبيعة المرأة ملكة لا تراها عند الرجل إلا لدرجة قليلة . تلك هي دقة الملاحظة . فإذا أنت رضت هذه الملكة فهين من نعومة أظفارهن رأيتن سريعات إلى معرفة ميول الرجال وأذواقهم وشهواتهم سريعات إلى إرضاء هذه الميول والأذواق على طريقة تبلغ من الدقة عند المرأة الكاملة ما يخلق بينها وبين الرجل أرقى العواطف وأرق الإحساسات

وما دام رضا الرجل هو غاية تربية المرأة فيجب أن تسلك معها سبيلا غير الذى سلكته في تكوين أميل . وقد رأيت أن أميل لا يجب أن يكون ثنائياً وأن يقصد إلى الفائدة من عمله . ورأيت أنه يجب عليك لتسكت الفتى أن تسأله : ما الفائدة من ذلك . أما الفتاة فلا يصح إسكاتها . إنما تسأل عن الأثر الذى يحدثه كلامها . ويجب أن تعود الكلام الرقيق والرد الدقيق وحسن العبارة وجميل الإشارة وما إلى ذلك مما يجذب قلب الرجال فيكرسون حياتهم لفخر المرأة المحبوبة ولسعادتها .

كذلك . « ما دام سلوك المرأة خاضعاً لرأى المجموع فيجب أن تخضع عقيدتها للسلطان العام بأن تعتق كل فتاة دين أمها وكل امرأة دين زوجها . ولو أن هذا الدين الذى تعتقه كان لغواً فإن خضوع الأم والأسرة طائعين لحكم الطبيعة يحرم ما في الخطأ من ذنب عند الله » .

وليس القصد من اعتناق الفتاة دين أمها أو زوجها أن تجعل الدين موضع بحثها وإنما القصد أن يحل محل العقيدة منها هدايتها وإرشادها . « ويجب لذلك أن تحتفظ بيناتك في أضيق حدود قواعد الخلق وأن تدخل إلى نفوسهن أن ليس لشيء مما نتعلمه فائدة إلا ما دلنا على الوسيلة لفعل الخير ، ألا تجعل من بناتك متكلمات منطقيات وألا تعلمهن من أمور السماء إلا ما يفيد الحكمة الإنسانية وأن تعودهن الشعور دائماً بأنهن بمرآى من الله ومسمع ، وأن يتخذنه شهيداً على

أعمالهن وأفكارهن وفضائلهن وهوهن ، وأن يعملن الخير غير مترددات لأنه يحبه ، وأن يحملن الضرر قانتات فلهن عنده جزاؤه ، وأن يكن في كل يوم من أيام حياتهن مطمئنات لما قدمن وأن هن تقدمن له . تلك هي الديانة الحقّة ، وهي وحدها البعيدة عن كل غلو وضلال وتعصب ، ومهما دعا الداعون إلى ما يحسبونه أرق من ذلك وأسمى فهي عندى الوحيدة التى أقر بها وأعترف » .

لكن روسو كان قد رأى ألا تعرض على أميل أية عبارة عن الدين قبل الثامنة عشرة من عمره . وكان قد علل ذلك بأنه قبل هذه السن لا يستطيع فهم قواعد الدين . فكيف به وهو يرى المرأة أضعف من الرجل عقلا يسارع إلى تلقينها عقيدة أمها وزوجها ويطالبها بالوقوف عندها والإيمان بها .

وقد رد روسو على هذا الاعتراض الواضح بقوله : « من الجلى أنه إذا قصر باع الذكران من الأطفال عن أن يكونوا لأنفسهم فكرة صحيحة عن الدين فأحر بالفكرة أن تكون فوق متناول تصور الفتيات . ولنفس هذا السبب أرى أن أحدثهن عنها في سن متقدمة . ذلك بأنه لو وجب أن ينتظر بهن حتى يستطعن مناقشة هذه المسائل العميقة مناقشة ضيقة فقد يبقى الإنسان أبداً الدهر ثم لا تحين هذه الفرصة » .

على أن الاعتراض السابق ورد روسو عليه يثيران مسائل شتى . فكيف يتأتى أن تعرض مسائل الدين على الفتاة وتحجبها عن الفتى . وهو إذا سمع أمه تخاطب أخته عن الدين أو رآهما تصليان لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر فيما يفعلان فإن أنت حاولت منعه وإلزامه الطاعة فإنك تدخل إلى نفسه أحد إحساسين : إن الدين من السخافات التى وضعت للنساء فلا يصح الأخذ به ، أو أن فى متناول أخته ما لا يستطيع هو إدراكه . وفى الحالين تكون قد هيأت متاعب للمستقبل قد لا يسهل اجتيازها .

لكنك إذا غرست قواعد الدين فى نفسه من نعومة أظفاره عرضت نفسك إلى خطر آخر فهو إما أن يتعصب لما عرفه من الدين لأنه عرفه ولا يستطيع فهمه . وإما أن يتزل عنه يوم يبلغ أشده أن يرى فيه شيئاً لا يقره عقله .

ومن هنا تنشأ صعوبة يتخطاها روسو ولا يعيرها كبير اعتبار . وهي عندنا صعوبة خلقها روسو بوضعه المرأة فى مستوى منحط عن مستوى الرجل بكل هذه

المراحل . ولو أنه لم يتأثر بادعاء السيدات دعيات الأدب والفلسفة في عصره ونظر في الأمر نظرة أكثر رفقاً وأعلى حكمة ولم يعمه عشقه النساء لرأى أن الفارق بين المرأة والرجل ليس بمقدار ما خيل إليه وأن اختلاف وظائفهما في الحياة التناسلية لا يقتضى كل هذا التفريق في طرائق تربيتهما . وهو ما دام قد قرر وجوب تربية الشاب والفتاة تربية جسمية متينة واعترف بضرورة إعدادهما لمعرفة ما في العالم فإن أدوات التربية الجسمية كأدوات المعرفة متعادلة للجنسين . وإنما هو استعدادهما الذى يوجه كلا بعد ذلك في طريقه .

وهل يحسب روسو أن الفتیان جميعاً من نوع واحد في الاستعداد . أو لو عالج غيره الموسيقى إلى سن الأربعين كنت تراه يفشل فشله . وهل من يعالج التحرير والأدب من نعومة أظفاره ينجح نجاحه وهو لم يعالجهما إلا بعد الأربعين . ولكن روسو عاش في عصر كان للمطلق وجود فيه . فبحث هو عن المطلق من ناحيته وخيل إليه أنه وجدته في تلك الأفكار الضئيلة الضيقة التي شغلته مدى حياته فنسج حولها من بدائع الأدب ما بقى ليخلد على حين تلاشت تلك الأفكار مع تلاشي المطلق أمام تقدم النظر العلمى .

من هذا المطلق اعتقاده أن المرأة خلقت لمسرة الرجل ولهو . وأنها لذلك مكلفة أن ترتب حياتها لتتال رضاها . ولسنا ندري مبلغ صحة هذا الرأي أمام ما أثبتته العلماء من أن الذكور من أنواع الحيوان تسعى لاستغواء الإناث برائع جمالها . ويشتد بها هذا السعى إبان فصل التاج . فذكر الطير يباهى بريشه وبرخيم صوته . وذكر الوحش يباهى بقوته وجماله . وتضعف الأنثى أمام الاستغواء وتخضع له ويكون التناسل نتيجة هذا الضعف والاستغواء .

على أن روسو لم يلاحظ شيئاً من هذا . بل أمعن في رأيه من أن المرأة متاع الرجل . وأن الفتاة يجب لذلك أن تراض على الخضوع من أول أمرها . « فإنما الخضوع شأن النساء بحكم الطبيعة حتى يشعر الفتيات إنما خلقن والطاعة أول واجباتهن . وإذن فلا حرج على المربي في إكراههن وقمع حريتهن . ولا جناح عليه إذا عاقبن . وإن من نتائج هذا القمع ما نرى في النساء من مرونة هن في حاجة إليها في حياتهن . فهن دائماً في قوامة رجل وهن دائماً طوع حكم الرجال . وليس لهن أن يضعن أنفسهن فوق حكم الرجال » .

ومجمل الأمر عند روسو أن المرأة تابع من تابع الرجل يجب أن تأخذ الصورة التي ترضى الرجل ، وروسو يجعل نفسه مقياس هذا الرجل الذي يجب أن ترضيه كل امرأة . فهو يضع أمام نظره ما مر به من تحكم النساء في أمره وتسليطهن عليه وعجزه أمامهن ويريد من المرأة التي تربى على ما يريد ألا تكون مثاراً لشيء من هذا التحكم ولا ذلك السلطان وألا تعرض الرجل أباً كان لما تعرض له روسو من ألوان الألم والعبث .

وقد مر بك ما لاقاه روسو من النساء . مر بك مبلغ حبه لهن وعجزه أمامهن ومبلغ استخفافهن به مع عطفهن عليه استخفافاً وعطفاً كان ينتهى به إلى كراهيتهن والفرار منهن واحدة بعد الأخرى . فهو لم يطق مدام ديناي ولا مدام دودتو ولا مدام دلكسمبور ولا واحدة من السيدات ذوات النبل والكرم وصاحبات الفضل عليه . كلا بل لم يطق « أمه » وخليلته مدام دفارانس . لأن هاتيك جميعاً كن متعلمات وكن يعلنن من حياته موضعاً للعبث به . لذلك يجب أن ينتقم لنفسه من جنسهن . ويجب أن تكون النساء جميعاً من صنف تريزلفاسير جهالة وغباء لأن تريزلفاسير وحدها هي التي استعقت تفضيل روسو على رغم ما كان يجده في غبائها وبلهها من عجب وبرغم ما كانت تفتن فيه أمها من أساليب الخداع للاحتيال على سلب ما يكسبه هذا البائس العظيم من المال القليل .

فأنت ترى أن روسو كان ذاتياً صرفاً حين معالجته موضوع تربية المرأة . وشأنه في ذلك شأن المغرمين بالنساء جميعاً . فكل مغرم بالنساء إلى حد الهيام ، أو إن شئت فقل مع أميل فاجيه إن الكثرة المطلقة من هؤلاء المغرمين الهائمين ليسوا من أنصار النساء . فهم لا يريدون أن نحصل المرأة على أى صفة من صفات الرجولة وإنما يريدونها مخلوقاً خاضعاً متعلقاً بهم ضعيفاً الضعف كله محتاجاً لأن يسر الرجل غير محتاج إلا لأن يسره . وذلك أمر طبعى ، فالمغرم بالنساء إنما يقصد إلى غاية واحدة هي امتلاك المرأة امتلاكاً بالفعل . وامتلاك المرأة عسير إذا كانت ذكية عالمة عارفة بشئون الحياة قادرة نفسها حق قدرها شاعرة بأن لها وجوداً مستقلاً عن وجود الرجل وإنها في حل من أن تنافسه في الحياة إذا هو أراد أن يدخل معها ميدان المنافسة . مثل هذه المرأة القوية النفس لن تسمح لأحد بامتلاكها . بل لعلها تسعى هي لامتلاك الرجل أو لعلها تريد أن تساويه وأن تكون وإياه في مستوى

واحد فهي صاحبتة وصديقتة ما دام وفيًا مخلصاً وما دام بينهما من تبادل الحب والاحترام ما يديم المحبة والصداقة ، وهي غنية عنه غير مبقية عليه إذا انقطع الوفاء أو ذبل الإخلاص . وما كان لهذا المدنف المدله أن ينصح الناس ليجعلوا من المرأة هذا المخلوق العسير الامتلاك . ولا كان له أن يخلق أمام أهوائه وشهواته صعباً وعقبات قد لا يتغلب عليها وبخاصة إذا كان حياً عاجزاً ضعيف الحيلة بمقدار ما كان روسو . فلتكن المرأة إذن جاهلة ساذجة ولتكن رقيقة مطواعة حتى يتيسر لهذا الأحقق روسو أن يمتلكها وحتى يأمن عبثها به وحتى يستطيع إن أراد أن يجسبها في صومعته فلا تشكو الحبس ولا تطلب الحرية التي أباحها الله للناس ليستمتعوا باستجلاء محاسن خلقه وليشاركوا الوجود مشاركة حرة تزيد حياتهم وحياة الوجود قوة ونماء .

* * *

أترى الناقد لرأى روسو في هذه المسألة يرى أن يؤخذ في تربية الفتاة بما يؤخذ به في تربية الفتى . أترأه يذهب إلى وجوب تدريب الفتاة على جلاد الوجود حتى إذا صارت امرأة كان لها أن تقف من الرجل الموقف الذى تختاره هي وألا تخضع لما يقصرها الرجل عليه . لعل الجواب ليس من السهولة بحيث يكتفى فيه عن نقد رأى بالأخذ بنقيضه . وهل كان إنكار الشيء اعترافاً بضده إلا عند العقول الساذجة البسيطة . إن إنكارك على شيء أنه أسود لا يقتضى أن يكون هذا الشيء أبيض . فإن بين السواد واليباض من مختلف الألوان ما يجعل التحديد عسيراً وإن كان الإنكار يسيراً . ونفيك أن أمراً وقع ليلاً لا يقتضى حتماً أنه وقع نهاراً . فساعات السحر وساعات الشفق تشارك الليل في ظلمته والنهار في نوره . فإذا كان ذلك هو الشأن في أمر المراثيات التى تقع تحت حِسْنَا فما بالك بغير المراثيات من متناول الأفهام . بل ما بالك بمسألة كالتربية ليس يكفى فيها الحس وليس يكفى فيها التفكير ولا تقطع فيها التجربة برأى ما دام معنى التربية البلوغ بالإنسان إلى خير حال يتلاءم فيها مع الوجود الذى خلق فيه ملاءمة تجعله أكثر ما يمكن متاعاً بالوجود وسعادة في الحياة من غير أن يكون متاعه وسعاده حملاً على الوجود ولا عيالا على أهل هذا الوجود .

ما بالك بمسألة كالتربية يختلف النظر إليها من زمن إلى زمن ومن قطر

إلى قطر . تتأثر بالطقس وبالجو وبالمصادفات السعيدة أو التبعة التى توجد فيها أمة من الأمم بل بالمصادفات السعيدة أو التبعة التى يوجد فيها الفرد . أليس من الحق أن يقال فى التربية ما قيل فى الطب : ليس ثمة أمراض وإنما ثمة مرضى . كذلك ليس ثمة تربية وإنما ثمة أشخاص يجب تربيتهم .

من المتعذر إذن أن تضع قاعدة مطردة للتربية عامة وأصعب منه أن تضع قاعدة لتربية الفتاة . ذلك بأن المرأة كجنس لم تصل بعد إلى موقف محدد فى أمر ما لها وما عليها . وإذا كان الرجال لا يزالون يتوقعون صوراً من التطور فى شئونهم فهم يرسمون لهذه الصور حدوداً وهم يقدرّون لهذه الحدود مواقع . وفى مقدور الفكر أن يتوسم إمكان حدوث هذه الصور أو استحالتها . وأن يتوسم مدى هذا الإمكان وأن يرتب عليه نتائجه . ولكن التطور فى شأن المرأة لا يزال على حال يجعل قرار الفكر عنده عسيراً . لأن الفكر لا يقر على غير مستقر إلا حدساً . فإذا رأيت الكتاب يرسمون قواعد لتربية المرأة فلا تحسبنهم واقفون عندها إلا الزمن الذى يقتضيه انتقال المرأة إلى طور جديد . وقد يطول هذا الزمن وقد يقصر . لكن عسيراً على كل حال أن تعرف ما ستكون علاقة المرأة بالرجل فى هذا التطور الجديد . وعلاقتها بالرجل وحظها إلى جانبه من الحرية ومقدار تعلقها به أو استقلالها عنه ، ذلك هو ما يجعلها توجه تربيتها إلى خير ما يصلح للرجل ولها .

ونحن نحسب مع ذلك أن خير ما يضمن تطور المرأة إلى الخير أن تربي حرة مطلقة الإطلاق كله . فهى إذا عودت مكافحة الوحود طفلة استطاعت كفاح الاجتماع امرأة . وهذه القوة النفسية التى أراد روسو أن يمتلئ بها فؤاد أميل يجب أن تغرس فى نفس الفتاة . لأن المرأة أضعف بنية من الرجل . وكل أنثى أضعف بنية من الذكر . فهى فى حاجة لأن تكون قوية النفس حتى لا يجتمع عليها ضعفان . ضعف الجسم وضعف الفؤاد .

لقد انصرفت جهود الرجال فى الماضى ليزيدوا المرأة ضعفاً وليشعروها بأن لا سبيل لسعادتها ولطمأنيتها فى الحياة إلا عطفهم عليها وبرهم بها . وهم يبيعونها هذا البر وذلك العطف فى مقابل خضوعها لهم . لذلك فسدت ملكاتها ولجأت إلى الخديعة والحيلة . ولو أنهم جعلوها تدرك دائماً أن قوة النفس تعدل قوة الجسم لكان لها أن تقف وإياهم فى ميدان الحياة تعاونهم أضعاف ما تعاونهم

اليوم - فإذا أرادوا الاعتداء عليها جزتهم عن العدوان عدواناً . وليس أحفظ للسلام من تعادل القوى . كما أنه ليس أحفظ للدولة من العدل بين أفرادها .

انظر كم بلغ فساد المرأة بسبب عسف الرجل بها وإضعافه نفسها إلى حد انحطت معه عن الحيوان . إن أنثى الحيوان لا تسلم نفسها للذكر إلا لتلد . أما المرأة فتسلم نفسها للرجل لتنال عطفه . وأنثى الحيوان لا تملق الذكر ولا تتزين له ، لأن نفسها أقوى من شهواتها . وذكر الحيوان هو الذى يملق الأنثى ويتزين لها فينفش شعره أو ينشر ريشه أو ينشدها أغانيه الرخيمة . أما المرأة فهي التى تملق الرجل وتتزين له وهى التى تحرك فيه ضعف نفسه ليعطف على ضعفها .

أما تعليم المرأة فأمر يرجع الرأى فيه إلى البيئة التى تنشأ فيها وإلى مبلغ حاجاتها من العلم . ولست أدرى لم نحصر الفتاة فى دائرة ضيقة من المعارف . إنما العلوم التى يتلقاها الناشئ إبان شبابه وسيلة لكشف ما فى الحياة من جمال ولاستغلال ما فى الوجود مما يزيد الحياة قيمة . فلم لا ننزع هذا السلاح فى يد الفتاة . لم لا نمهّد لإدراكها السبيل لكشف مختلف ما فى الحياة من صور الحياة . وهى بعد ذلك متوجهة حتّى إلى ما تسوقها طبيعتها الخاصة إلى التوجه له من هذه الصور . وما دمت قد حصنت نفسها وأزحت عن ذهنها ذلك السر الذى يحجب ما كشف عنه العلم فقد أيقنت أنك لم تفعل إلا خيراً .

قد يكون صحيحاً أن المرأة تدرك من العالم ما لا ندرك . ويفوتها منه كثير مما ندرك . لكن العلم الذى كشف من شئون العالم لم يكن من وضع الرجال وحدهم . ولم يكن من وضع النساء وحدهن . وإنما هو شركة لكل فيها نصيب . ولكل منها حظ . وقد تفيد امرأة ما لا يفيد رجل . وقد تكون المرأة التى تكتب عن تربية المرأة أكثر توفيقاً من روسو إذا هى أفادت من العلم ما يمهّد لها سبيل التفكير والكتابة .

على أنا وإن نقدنا رأى روسو فى تربية المرأة فإننا لانمل تكرار ما سبق لنا ذكره . . إن فى صحائف (صوفى) من الأوصاف والملاحظات ما يستحق الإعجاب . وإن الأسلوب فيها هو دائماً أسلوب روسو . ذلك الأسلوب الموسيقى البالغ فى تجاوبه حدود الإبداع .

وظهر كتاب الترية فكان ظهوره بدء متاعب روسو وشقوته . لاقى بسببه من العنت ما مر بك في الجزء الأول من هذا الكتاب . قرر برلمان باريس القبض عليه فاضطر للفرار من فرنسا . وأصدرت حكومة جنيف مثل هذا القرار في شأنه . وصادره السوربون وطعن عليه أسقف باريس وحرّمه البابا . وكان فراره من فرنسا مقدمة حياة التجوال التي عاد إليها والتي انتهت به إلى الجنون ووقفت به على حافة هاويته .

وقد أعان روسو على الفرار من باريس ما كان باقياً لديه من بعض ما كسبه من كتاب العقد الاجتماعي ، وما أعانته به جماعة باللكسمبور . وفيما هو في فراره وانتقالاته بين البلاد المختلفة في سويسرا رد على أسقف باريس بكتاب وجهه إليه ، وعلى حكومة جنيف بخطابات الجبل . وسنعرض لهذه الردود وللعقد الاجتماعي وللاعترافات وللأحلام في الفصول الباقية التي تضمنها الجزء الأخير من هذا الكتاب .